هكذا طريق الصالحات

د. محمد رمضان أبو بكر محمود
مدرس بكلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

٢١٠١٤
ب م ه

هكذا طريق الصالحات

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ مـ

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية .

محمود ، محمد رمضان أبو بكر .
هكذا طريق الصالحات / تأليف محمد رمضان أبو بكر محمود . - ط١ . - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠٠٦م .
٢٤٠ ص ؛ ٢٠سم .
تدمك ٤ ٤١٥ ٣٤٢ ٩٧٧
١ - المرأة في الإسلام .   أ - العنوان
٢١٠,٤

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م في عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

هكذا طريق الصالحات

تأليف

د. محمد رمضان أبو بكر محمود
مدرس بكلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

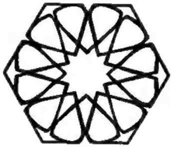

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ... فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٤] .

وقال المتنبي :

فلو كان النساء كمن فقدنا
لفضِّلتِ النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب
وما التذكير فخر للهلال

الإهداء

إلى والديَّ الكريمين - رحمهما اللَّه -

.. رحمةً ودعاءً

إلى زوجتي وبناتي .. حبًّا وحنانًا

إلى إخوتي وأهلي .. برًّا ووفاءً

إلى الأخت المسلمة .. دعوةً ورجاءً

إلى الصالحين والصالحات في كل زمان ..

شكرًا وثناءً

أهدي هذا العمل المتواضع

سائلًا اللَّه القبول والمزيد .

محمد رمضان أبو بكر محمود

مُقَدِّمَة

الحمد لله المستحق وحده للحمد والثناء ، والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد :

فليس هذا مجرد كتاب يُقرأ ، أو يُدرَّس ، وما كتبته ليكون كذلك وفقط ، كلا ، إنما هذا الكتاب بمثابة رسالة إلى كل امرأة مسلمة تؤمن بربها ، وتعرف دينها ، وتبحث عن الطريق الصحيح الذي يوصلها إلى أن تكون ممن قال الله ﷻ فيهن : ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٤] .

لذا كان النداء لهذه المرأة المسلمة : أنك لست وحدك على طريق الصلاح ، إنما لك سلف صالح سبقت لهن من الله الحسنى ، فسلكن هذا الطريق قبلك ، وارتدنه لك ، وكن نماذج خير ، ومشاعل نور تضيء أمامك حتى تمشي وراءهن ، وتقتدي بهنَّ ، فتصلي إلى ما وصلن إليه من رفعة الدنيا وسعادة الآخرة .

إن الطريق ممهد وواضح لمن أرادت أن تتبع من تطلب من الله ﷻ في كل ركعة من ركعات صلاتها ، أن يهديها إلى اقتفاء أثرهن ، والسير علي نهجهن حين تقرأ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] .

إن هؤلاء هن اللاتي أنعم الله عليهن بالعقيدة الصافية ، والعبادة الخالصة ، والأخلاق الفاضلة ، والعلم النافع ، والتزمن السلوك الإسلامي مع أزواجهن ، وأولادهن ، وفي مجتمعاتهن ؛ وبذلن أموالهن وأنفسهن في سبيل الله تعالى ؛ إن هؤلاء هن محل نظرك – أيتها المسلمة – هن سلفك الصالح ، هن قدوتك ، واتباعك لهن سبب نجاتك في الدنيا والآخرة .

إنه لا يوجد مثل هذا الزمن الذي نعيشه الآن تظهر فيه قيمة القدوة الطيبة ، والمثل الصالح ، حيث اختلطت القيم عند الكثير ، فضاع الحق وسط الباطل ، وانقلب الشر خيرًا ، والخير شرًّا ، وصار المعروف منكرًا ، والمنكر معروفًا ، وغلبت الحيرة على أولي الألباب ، لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلًا .

في هذا العصر الذي سادت فيه الأراذل ، وصار السفيه يتكلم في أمر العامة ، ووُسد الأمر لغير أهله ، وولدت الأمة ربتها ، وغدت الكاسيات العاريات المائلات المميلات هن نجمات المجتمع ، وموضع تقدير الناس وإعجابهم .

في مثل هذا العصر تصبح القدوة الصالحة هي المنقذ الوحيد لمن أراد أن يهتدي إلى طريق الحق ، ويخرج من هذه الحيرة ، ويضع الأمور في نصابها الصحيح ، فيرى الخير خيرًا ، والشر شرًّا .

ليس مثل القدوة أعون في إنقاذ شباب الأمة وفتياتها ،

الذين انبهروا بالنماذج الفاسدة ، الذين تعظَّم لهم كل يوم ، وتطلى أمام أعينهم كل ساعة ، ليأخذهم بريقها ولمعانها عن جوهرها وحقيقتها .

إن القدوة الصالحة تجعلهم يفتحون أعينهم على الحقيقة ، فيرون الأقزام أقزامًا ، والعمالقةَ عمالقةً ، مهما ألبس الأوائل ، أو أهيل التراب على الآخرين .

ولا يظن أحد أن قدوتنا الصالحة فيمن سبقنا بإحسان إلى اللَّه تعالى فقط وإن كانوا الغالبية في ذلك ؛ كلا ، لئلا يدَّعي مدَّعٍ أننا نجتر الماضي ، أو أن الزمان قد تغير ، وأن الحياة أسرعت الخطى في التقدم والرفاهية ، فعاد إنسان اليوم غير إنسان الأمس .

إن في عصرنا – وفيما هو قريب جدًّا من هذا العصر – من الصالحين والصالحات من تستحق بجدارة أن تكون قدوةً صالحةً لمن أرادت أن تقتدي ، وإن كانوا قلةً إلا أنهم موجودون ، وسيظلون – والحمد للَّه – موجودين سواء عرفناهم أم لا ، ذكرتهم الكتب أم غفلت عنهم ، حفل بذكرهم التاريخ أم طواهم النسيان ، ولم يتوقف عندهم الزمان .

لذا آثرت في هذا الكتاب أن أجمع بين السابقات والمعاصرات ، وأذكر مواقف هؤلاء وأولئك حتى أقيم الحجة على المرأة المسلمة الآن ؛ أنها تستطيع أن تكون على طريقهنَّ ، وتقتدي بهنَّ دون عذر أو علة .

هذا .. وقد حاولت - جهدي - أن ألتزم بالمنهج الموضوعي في عرض مواقف الصالحات ، دون التفات كبير إلى التعريف بالشخصيات أو الترجمة لها ؛ وقد سرت في ذلك على نفس المنهج الذي سار عليه عالمان جليلان ، وداعيان نشيطان ، أحسبهما على الجادة والله حسيبهما أحدهما الشيخ محمد بن يوسف الكاندهلوي رحمه الله في مؤلفه : (حياة الصحابة) ، والثاني الدكتور طلعت عفيفي - حفظه الله - في مؤلفه : (صفحات مشرقات من حياة الصحابيات) ؛ وإن كنت قد انفردت عنهما بالبدء من عصر التابعيات إلى يومنا هذا .

وما أعجبني في هذا المنهج ، أنه لا يسرد المواقف سردًا تاريخيًا جافًا ، ولا يعتني بمجرد الترجمة للأعلام من الصالحين والصالحات ، وإنما يضع قيم الإسلام وواجباته بين يدي القارئ ، ثم يأتي بالنماذج الحية ، والأمثلة الواقعية ، على هذه القيم من حياة الصالحين والصالحات ، لتكون حافزًا ودافعًا لمن أراد أن يقتدي بهم .

وإذا كان الكتاب الذي بين أيدينا موجهًا بالأصالة إلى المرأة ، فليس معنى ذلك أن الرجل لن يستفيد منه ، كلَّا ، بل ربما يكون الرجل أكثر استفادة منه عن طريق شحذ الهمة ، وتقوية العزيمة ، وتذكير النفس ، بأنه كيف لا يصل إلى ما وصلت إليه هؤلاء النسوة الصالحات ؟!

هذا .. وقد وفقني الله ﷻ إلى تقسيم هذا البحث إلى : مقدمة ، وتمهيد ، وستة فصول ، وخاتمة .

أما المقدمة .. فقد اشتملت على بيان أثر القدوة في حياة المسلمين ، ومنهج البحث ، وخطته .

وأما التمهيد .. فقد اشتمل على النقاط التالية :

١ - مكانة المرأة في الإسلام .

٢ - لماذا الحديث مع المرأة المسلمة الآن ؟

٣ - دفع شبهة أن الإسلام لم يطبق عمليًا إلَّا في عصر الصحابة فقط .

ثم **الفصل الأول** .. تحت عنوان : هكذا كانت عقيدتها وعبادتها ، وقد عرضت فيه لثمانية جوانب من جوانب العقيدة والعبادة التي برزت فيها المرأة الصالحة ، وهي :

أ - حسن توكلها على الله تعالى وثقتها به .

ب - رضا المرأة الصالحة بما قسم الله تعالى لها .

جـ - خوفها وخشيتها من الله تعالى .

د - مراقبتها لله تعالى .

هـ - علو همتها في طاعة الله تعالى .

و - اجتهادها في قيام الليل .

ز - إخلاصها في عبادة ربها ، وحبها لطاعته .

ح - محبة المسلمة الصالحة لربها .

ثم **الفصل الثاني** .. تحت عنوان : هكذا كانت أخلاقها وفضائلها ؛ وقد ركزت فيه على بعض الأخلاق التي تميزت بها المرأة الصالحة ، وهي :

أ - الصبر . ب - الوفاء . جـ - الورع .

د - القناعة . هـ - الكرم . و - التواضع .

ثم **الفصل الثالث** .. تحت عنوان : هكذا كان علمها وحكمتها ؛ وقد قسمته إلى النقاط التالية :

أولًا : دور المرأة الصالحة في مجال العلوم الشرعية .

ثانيًا : دور المرأة الصالحة في مجال العلوم الأخرى .

ثالثًا : المرأة الصالحة تحث أبناءها على طلب العلم .

رابعًا : ما أثر عن المرأة الصالحة من الحِكم .

ثم **الفصل الرابع** .. وعنوانه : هكذا كانت مع زوجها وأولادها ، وقد تناولت فيه جانبين أساسيين في حياة المرأة الصالحة مع أسرتها ، وهما :

أولًا : حسن عشرتها لزوجها .

ثانيًا : حسن تربيتها لأولادها .

ثم **الفصل الخامس** .. وعنوانه : هكذا كان إنفاقها وعملها الصالح ، وقد ذكرت فيه نماذج من الصالحات المنفقات المشاركات في سد حاجات المجتمع ، عن طريق العمل الخيري ، ووقف الأموال في سبيل مشروعات الخير والبر .

ثم **الفصل السادس** .. تحت عنوانه : هكذا كان جهادها وشجاعتها ، وقد تناولت فيه نوعين من أنواع جهاد المرأة الصالحة ، وهما :

أولًا : جهاد المرأة الصالحة بلسانها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ثانيًا : جهاد المرأة الصالحة بيدها دفاعًا عن دينها .

وأخيرًا الخاتمة .. وقد وضعت فيها كيفية اقتداء المسلمة الآن بالصالحات المذكورات في الكتاب ، وجاءت تحت عنوان : كيف تكونين كذلك في هذا العصر ؟

وختامًا : أسأل اللَّه العلي القدير أن أكون قد وفقت في توصيل هذه الرسالة للمرأة المسلمة ، وأنرت أمامها طريق الصالحات ، ووضعت بين يديها القدوة الصالحة لها ؛ وإن لم أكن قد فعلت فحسبي أنني اجتهدت .. وأسأل اللَّه ﷻ العفو والمغفرة .

اللَّهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني .

اللَّهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي .

اللَّهم اجعله عملًا صالحًا ، ولوجهك مخلصًا ، وتقبله مني ، إنك أنت السميع العليم .

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

أولًا : مكانة المرأة في الإسلام

كتب العلماء الأجلاء كتبًا كثيرةً ، وبحوثًا متعددةً ، تجلِّي المكانة الكريمة التي وضع الإسلام فيها المرأة ، ولم يتركوا حقيقةً غامضةً ، أو شبهةً زائفةً ، إلا دحضوها ، وبيّنوا وجه الحق فيها .

ومن ثَم ، فما أقدمه هنا ما هو إلّا خلاصة سريعة لأقوالهم ، وموجز مبسط لمن أراد أن يلم إلمامةً سريعةً بهذا الموضوع الكبير .

وبين يدي هذا الموجز ، أؤكد على حقيقة هامة يجب أن تكون واضحةً غايةَ الوضوح ، وهي :

إن العلماء والفقهاء عندما تحدثوا في هذا الجانب ، لم يدافعوا عن الإسلام ، لأن الإسلام ليس في موقف الاتهام – بالنسبة لقضية المرأة ولا لغيرها من القضايا – حتى يحتاج إلى من يدافع عنه ؛ كلَّا ، ولم يكن ، ولن يكون يومًا كذلك ؛ لأنه شرع اللّه الحكيم ، الذي تعجز عن الوصول إلى كل حِكَمه أفهام البشر وعقولهم ؛ لأن العقول مخلوقة ، وهو تشريع الخالق ؛ ولأن العقول محدودة ، وهو تشريع لا يحد بزمان أو مكان .

وإنما كتب من كتب من العلماء في هذه القضية وغيرها ، تجليةً وتوضيحًا لمن أراد أن يفهم ، أو يعلم ويتعلم .

والمقام هنا لا يتسع لأكثر من هذا التأكيد على هذه الحقيقة الناصعة .

أعود إلى ما ذكره العلماء عن مكانة المرأة في الإسلام ، فأقول :

انطلق الإسلام في نظرته للمرأة من أمرين مُسلَّميْنِ من جميع العقول البشرية ، لا يجادل فيهما مجادل ، ولا ينكرهما منكر ، وهذان الأمران هما :

١ - كون المرأة إنسانًا لها خصائص الجنس الإنساني .

٢ - كون المرأة أنثى تتميز بمميزات النوع الأنثوي .

فأعطى الإسلام المرأة حقوقها الإنسانية كاملةً ، وحافظ على مميزاتها الأنثوية محافظةً تامةً ، ولم يقصر في هذا ، ولا ذاك .

يقول الأستاذ/ البهي الخولي : « الإسلام حين أعاد للمرأة مكانتها ، انطلق من فطرتها وطبيعتها ، فأعلن إنسانيتها التي تستوي فيها مع الرجل في جميع الحقوق والواجبات البشرية ، وأعلن وصفها الخاص الذي تنفرد به عنه باعتبارها أنثى لها صفاتها الخاصة ، وحقوقها وواجباتها المتميزة ، وفي تشريعه لهذين الجانبين في المرأة ، لم يقصّر بها عن الوضع الذي قررته الفطرة لإنسان ، ولم يجاوز بها المدى الذي رسمته الطبيعة لأنثى »[1] .

ونصوص القرآن والسنة تشهد بهذا التوازن في نظرة

(١) انظر : الإسلام والمرأة المعاصرة - الأستاذ/ البهي الخولي - (ص١٥) - الطبعة الثالثة - دار القلم - الكويت - د.ت .

الإسلام للمرأة ، الذي منحها منتهى التكريم والرفعة ، ويكفي أن نعرض منها بعض الأمثلة على ذلك :

١ - ففي تقرير إنسانيتها يقول الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فهي مثل الرجل في الإنسانية ، وأخته في البشرية ، خلقها الله ﷻ كما خلقه ، ولا فضل له عليها ، ولذا يقول ﷺ : « إنما النساء شقائق الرجال » (١) .

٢ - ومادامت إنسانيتها قد تقررت ، فلابد أن تتحمل المسؤوليّة الكاملة تجاه أعمالها ، فتأخذ الثواب ، وتتحمل العقاب ، يقول الله ﷻ : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

ويقول - عز من قائل - : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤] .

٣ - وإذا كانت قد تحملت مسؤوليتها ، فلابد أن تؤهل لحمل هذه المسؤولية ، فتربى أحسن تربية ، وتعلم أفضل تعليم .

---

(١) سنن أبي داود - كتاب الطهارة - باب في الرجل يجد البلة في منامه ؛ وسنن الترمذي - كتاب الطهارة - باب فيمن يستيقظ فيرى بللًا ولا يذكر احتلامًا ، وقال الترمذي : فيه عبد الله بن عمر بن حفص العمري ضعفه يحيى بن سعيد من قبل حفظه .

قال ﷺ : « أيما رجل كانت عنده وليدة ، فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » [١] .

وقال ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » [٢] .

وتدخل المرأة في هذه الفريضة - أيضًا - كما قال الحافظ السخاوي رحمه الله : « قد ألحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث (ومسلمة) ، وليس لها ذكر في شيء من طرقه ، وإن كان معناها صحيحًا » [٣] .

ومما يؤكد ذلك ، أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يومًا من نفسك ، فوعدهن يومًا لقيهن فيه ، فوعظهن وأمرهن [٤] .

٤ - وإذا تعلمت المرأة وتربت ، فلا يمكن بحال أن تهدر أهليتها الاقتصادية أو الاجتماعية .

فمن ناحية أهليتها الاقتصادية : منحها الإسلام حق التملك

---

(١) صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب من اتخذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه - المقدمة - باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير - الطبعة الثانية - المكتب الإسلامي - سنة (١٩٨٦م) .

(٣) المقاصد الحسنة - ص٢٧٧ - الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت - سنة (١٩٧٩م) .

(٤) صحيح البخاري - كتاب العلم - باب هل يجعل للنساء يومًا على حدة .

والإرث والبيع والشراء والأخذ والعطاء ... إلخ ، قال تعالى : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء : ٧] .

وقال - عز من قائل - : ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء : ٤] .

وقال ﷺ : « يا معشر النساء تصدقن ... » الحديث (١) .

وقال ﷺ : « إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها ، غير مفسدة ، كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجر بما كسب ... » الحديث (٢) .

ومن ناحية أهليتها الاجتماعية : جعل الإسلام لها حق اختيار من ترضاه زوجًا لها ، بحيث لا يكون لأحد من الأولياء - ولو كان أبًا - جبرها على قبول زوج رفضته .

قال ﷺ : « الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر يستأذنها أبوها في نفسها ، وإذنها صماتها » (٣) .

---

(١) متفق عليه - صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب الزكاة على الأقارب ؛ صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات .

(٢) متفق عليه - صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب من أمر خادمه بالصدقة ولم يناول بنفسه ؛ صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت من بيت زوجها غير مفسدة .

(٣) صحيح مسلم - كتاب النكاح - باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت .

فإن أكرهها أحد على ذلك ، جعل الإسلام الأمر إليها إن شاءت قبلته ، وإن شاءت ردته .

جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت : « إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته » فجعل رسول الله ﷺ الأمر إليها ، فقالت : « قد أجزت ما صنع أبي ، ولكني أردت أن تعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء » (١) .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : « لا تجبر البكر البالغ على النكاح ، ولا تزوج إلا برضاها ، هذا قول جمهور السلف ، ومذهب أبي حنيفة وأحمد في إحدى الروايات عنه ، وهو القول الذي ندين لله به ، ولا نعتقد سواه ، وهو الموافق لحكم رسول الله ﷺ ، وأمره ونهيه ، وقواعد شريعته ، ومصالح أمته » (٢) .

٦ - ووصل الإسلام بالمرأة إلى أكثر من ذلك ، إذ جعلها مسؤولة عن إصلاح المجتمع وتقويمه ، من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۢ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ

---

(١) أخرجه النسائي في سننه - كتاب النكاح - باب البكر يزوجها أبوها وهي كارهة ؛ وابن ماجه في سننه - كتاب النكاح - باب من زوج ابنته وهي كارهة ؛ قال أبو عبد الرحمن النسائي : « هذا الحديث يوثقونه » .

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد - (٤/٣) - الطبعة الأولى - دار الريان للتراث - سنة (١٩٨٧م) .

﴿ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٧١] .

٧ - ويبلغ التكريم أسمى معانيه ، حين يجعل الإسلام للمرأة ذمةً وعهدًا تستطيع أن تجير به من تشاء من الأعداء وتحميه ، فتنفذ الأمة كلامها ، وتستجيب لرأيها ، فلا يتعرض أحد لمن أجارته بسوء .

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها : « إن كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز » (١) .

وذلك أمر من أخطر الأمور ، بل لعله أخطرها وأولاها بالحذر والاحتياط ، فتقرير أهليتها وعدالتها فيه إلى هذا المدى ، هو توكيد لثقة الإسلام المطلقة في كفاية الخصائص العالية التي أهلت بها ، وإعلاء لكرامتها ومكانتها في الحياة (٢) .

هذه أمثلة لنظرة الإسلام للمرأة في جانبها الإنساني المستوية فيه مع الرجل .

أما نظرته لجانبها الأنثوي الذي تختص به دونه ، فالأمثلة على ذلك كثيرة أيضًا ، منها :

١ - إن الإسلام حماها وحفظها من المشقة والمكابدة في كسب العيش ، فأوجب نفقتها على وليها - أبًا كان أو أخًا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه - كتاب الجهاد - باب في أمان المرأة ، والنسائي في سننه - كتاب السير - باب إعطاء الوليدة الأمان .

(٢) الإسلام والمرأة المعاصرة - الأستاذ/ البهي الخولي - (ص٢٩) - مرجع سابق .

أو عمًّا ... أو غيرهم - فإذا تزوجت ، انتقلت كفالتها إلى زوجها ينفق عليها ، ويلبي حاجاتها مهما كانت عندها من أموال .

قال ﷺ : « **من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن ، وجبت له الجنة البتة** » قيل : يا رسول الله ، فإن كانتا اثنتين ؟ قال : « **وإن كانتا اثنتين** » ، قال : فرأى بعض القوم أن لو قال واحدة لقال : وواحدة »(١) .

وعن معاوية بن حَيْدَةَ ﷺ قال : قلت : يا رسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « **أن تطعمها إذا طعمتَ ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلّا في البيت** »(٢) .

وهذه الكفالة اقتضتها خلقتها كأنثى ، عليها رعاية بيتها ، وتربية أطفالها ، وهذه مهمةٌ شاقة تحتاج إلى جهدٍ كبيرٍ ، وتفرغ كامل ؛ لذا لم يفرض الإسلام عليها العمل خارج البيت ؛ لأن هذا ظلم لها ، إذ هي تعمل وتتعب داخله ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، مسند جابر بن عبد الله - طبعة مؤسسة قرطبة - مصر - د.ت ؛ قال الهيثمي : رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط بنحوه وزاد « ويزوجهن من طرق » وإسناد أحمد جيد - مجمع الزوائد للهيثمي - (١٥٧/٨) - طبعة دار الكتاب العربي - بيروت - سنة (١٤٠٧هـ) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه - كتاب النكاح - باب في حق المرأة على زوجها ، وابن ماجه في سننه - كتاب النكاح - باب حق المرأة على الزوج ؛ وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه - (٢٠٤/٢) .

فكيف يجتمع عليها هذا وذاك ؟!

إن هذا - من وجهة نظر الإسلام - مخالف لطبيعتها الأنثوية ، ما لم تضطرها الظروف لذلك بالضوابط الشرعية التي حددها الإسلام لعمل المرأة [1] ، وبحيث لا يخرج الأمر عن حالة الاضطرار .

٢ - ومنها أن الإسلام حافظ على أنوثتها ، حتى تظل ينبوعًا لعواطف الحنان والرقة والجمال ؛ ولهذا أحل لها بعض ما حرم على الرجال بما تقتضيه طبيعة الأنثى ووظيفتها : كالتحلي بالذهب ، ولبس الحرير الخالص .

فقد جاء في الحديث : « **إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم** » [2] .

وحرم عليها كل ما يجافي هذه الأنوثة ، من التشبه بالرجال في الزي ، والحركة ، والسلوك ، وغيرها ؛ وإبداء الزينة الخفية لغير زوجها ومحارمها ، أو لبس ما يجذب انتباه الرجال ، وكل سلوك يلفت نظرهم إليها ، أو الخلوة

---

(١) راجع هذه الضوابط في كتاب « ملامح المجتمع المسلم » - د/ القرضاوي - (ص٣٩٢،٣٩٣) - الطبعة الأولى - مكتبة وهبة - سنة (١٩٩٣م) .

(٢) أخرجه النسائي في سننه - باب تحريم الذهب على الرجال ، وأبو داود - بنحوه - كتاب اللباس - باب في الحرير للنساء ؛ قال صاحب عون المعبود « نقل الحافظ عبد الحق عن ابن المديني أنه قال : حديث حسن ورجاله معروفون » - عون المعبود - الطبعة الثانية - دار الكتب العلمية - بيروت - سنة (١٤١٥هـ) .

بأي رجل ليس زوجًا لها ، ولا محرمًا عليها ، أو الاختلاط بمجتمع الرجال الأجانب لغير حاجة داعية ، أو زيادة عن القدر اللازم ، أو دون الالتزام بالحدود الشرعية في لقائهم .

يقول الدكتور/ القرضاوي : « إن الإسلام بهذه الأحكام يحمي أنوثة المرأة من أنياب المفترسين من ناحية ، ويحفظ عليها حياءها وعفافها بالبعد عن عوامل الانحراف والتضليل من ناحية ثانية ، ويصون عرضها من ألسنة المفترين والمرجفين من ناحية ثالثة ؛ وهو - مع هذا كله - يحافظ على نفسها وأعصابها من التوتر والقلق ، ومن الهزات والاضطرابات نتيجةً لجموح الخيال ، وانشغال القلب ، وتوزع عواطفه بين شتى المثيرات والمهيجات » (١) .

٣ - ومنها كذلك كل الأحكام التي فرق الإسلام فيها بين الذكر والأنثى ، من حيث القوامة ، والميراث ، والشهادة في الأموال والجنايات ، والولاية العامة ، وغيرها ؛ وكلها في مجملها ترجع إلى مراعاةِ طبيعةِ الأنثى ، واختلاف تكوينها الجسدي والنفسي والعقلي عن الرجل ، هذا الاختلاف التكويني الذي قرره القرآن الكريم حين قال : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران : ٣٦] .

نعم ليسوا سواءً ، ولن يكونوا كذلك أبدًا ، فما بال أصحاب الحضارة الغربية وأذنابهم في بلادنا ، يريدون أن

---

(١) انظر : ملامح المجتمع المسلم - د/ القرضاوي - (ص٣٦٨) .

يقفزوا فوق هذه الحقيقة الفطرية الطبيعية التي تقررها جميع العقول الإنسانية .

تلك هي نظرة الإسلام المتوازنة للمرأة من جانبيها الإنساني والأنثوي ، وهي النظرة التي وضعت المرأة على طريق التكريم الحقيقي ، ورعتها من جميع النواحي ، وصححت أخطاء العصور السابقة واللاحقة في نظرتهم للمرأة .

يقول الأستاذ/ العقاد رحمه الله : « الصفة التي وصفت بها المرأة في القرآن الكريم ، هي الصفة التي خلقت عليها ، أو هي صفتها على طبيعتها التي تحيا بها مع نفسها وذويها .. والحقوق والواجبات التي قررها كتاب الإسلام للمرأة أصلحت أخطاء العصور الغابرة في كل أمة من أمم الحضارات القديمة . وأكسبت المرأة منزلةً لم تكسبها قطّ من حضارة سابقة ، ولم تأت بعد ظهور الإسلام حضارة تغني عنها بل جاءت آداب الحضارات المستحدثة على نقص ملموس في أحكامها ووصاياها بالمرأة » [1] .

* * *

(١) المرأة في القرآن الكريم - (ص ٧، ٨) بتصرف واختصار - طبعة الهيئة العامة للكتاب ضمن مكتبة الأسرة - سنة (٢٠٠٠م) .

ثانيًا : لماذا الحديث مع المرأة المسلمة الآن ؟

تنبع أهمية الحديث مع المرأة المسلمة في الوقت الحالي من أمرين رئيسين لا خلاف عليهما ، وهما :

الأول : الأزمة العصيبة التي تمر بها الأمة .

الثاني : دور المرأة العظيم في مجاوزة هذه الأزمة .

ويتضح ذلك من خلال ما يلي :

أولًا : الأزمة العصيبة التي تمر بها الأمة :

مما لا شك فيه أن الأمة الإسلامية تمر بفترة عصيبة من فترات تاريخها ، ربما لم تمر بمثلها من قبل ، فالأخطار تحدق بها من الخارج ، والأدواء والأمراض تنهك جسدها من الداخل .

وقلَّ فيها من يعمل لها بإخلاص ، وقلَّ - من المخلصين لها - من يفهم دوره في نهضتها ، وقلَّ - من المخلصين الفاهمين - من لديه العزيمة ليعمل وينفذ ، وقلَّ - من هؤلاء- من لا تمنعه قوى البغي والطغيان في الداخل والخارج من العمل ، وصدق من قال :

وقد كانوا إذا عُـدُّوا قليـلًا
فقد صاروا أعزَّ من القليل

وتحقق فينا ما نبأنا به نبينا ﷺ - تحذيرًا لنا - حين قال : « **يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها** » ، قالوا : أوَمِن قلةٍ نحن يومئذٍ يا رسول الله ؟ قال :

« لا ، بل أنتم يومئذ كثير ، لكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعنَّ اللّه المهابةَ من قلوب أعدائكم ، وليقذفنّ في قلوبكم الوهن » ، قالوا : وما الوهن يا رسول اللّه ؟ قال : **« حب الدنيا وكراهية الموت »** [١] .

وهذا كيد الخارج الذي ما نجح في الولوغ في القصعة إلى هذا الحد المؤسف الواضح للعيان ، إلا حين استفحل الداء في الداخل ، وسرى الوهن في داخل المسلمين ، وطغى حب الدنيا على قلوبهم حتى صرت لا تسمع لهم صوتًا ، ولا تشعر لهم بحركة .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فإن سنن اللّه ﷻ مع هذه الأمةِ خاصة ، ومع الأمم عامةً أن العلو لا يدوم ، والسقوط لا يستمر ، بل يداول اللّه ﷻ الأيام بين الناس ، فيعز المذل ، ويذل العزيز ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

فضلًا عن هذه السنة العامة في الأمم جميعًا ، فإن هناك سنة خاصة لهذه الأمة ، وهي أنها لا تموت بالكلية ، ولا يقضى عليها فتفنى وتندثر بل قد تضعف ويشتد بها الضعف ، لكنها لا تصبح أثرًا بعد عين أبدًا .

والتاريخ خير دليل على ذلك ، فكم من المرات هلل أعداؤها فرحًا وظنوا أن الأمة الإسلامية قضي عليها ، وأن

---

(١) أخرجه أبو داود – كتاب الملاحم – باب في تداعي الأمم على الإسلام .

دولتها وسطوتها ذهبت إلى الأبد ، ولكن فرحتهم تضيع سدى في سنوات قليلة ، أو في قرون قصيرة ، ثم تعود الأمة إلى سابقِ عهدها ، ويعلو شأنها ، وتمسك بزمام القيادة من جديد .

وقد منَّ اللّه ﷻ على هذه الأمة في أيامنا هذه بالصحوة بعد الغفلة ، وباليقظة بعد السبات ، وباتت ملامح هذه الصحوة بادية بقوة على صفحات المجتمع الإسلامي ، لكن الواقع – كل يوم – يؤكد أن هذه الصحوة تحتاج إلى شد الأزر ، وتثبيت أهلها على الحق ، والوقوف بعزيمة لا تلين في وجه من يريد إجهاضها ، سواء أكان من الداخل بحمق أوخيانة ، أم من الخارج بكيد وعداوة ، حتى تشب الصحوة على عودها ، وتستوي على سوقها ، لكي تعجب المؤمنين ، وتغيظ الكافرين والمنافقين ، وترفع شأن الأمة في العالمين .

وإذا كانت المرأة ساعةَ المخاض تحتاج إلى تضافر جهود من حولها حتى تمر ساعات ولادتها بسلامٍ ، فإن الأمة تحتاج الآن – أكثر من أي وقت مضى – إلى تضافر جهود أبنائها لكي تولد من جديد ، وهؤلاء الأبناء ليسوا هم الرجال وحدهم – كما يظن البعض – كلا ، بل هم الرجال والنساء ، والحق أن النساء أولًا ثم الرجال ، لماذا ؟ :

لعظم دورهن في تجاوز الأمة لأزمتها ، وفي نشر الصحوة بين أبنائها ، وهذا يتضح مما يلي :

ثانيًا : دور المرأة العظيم في مجاوزة هذه الأزمة :

هذا الدور الذي يظهر من خلال النقاط التالية :

١ - المرأة في الإسلام ليست هي نصف المجتمع كما يدعي المدّعون ، بل هي المجتمع كله ، كما قال الداعية المسلم لها « أنت نصف المجتمع ، وتلدين النصف الآخر ، فأنت المجتمع كله » .

هكذا ينظر الإسلام إلى المرأة ، وهكذا يضع على عاتقها أعباءً جسامًا ، ومسؤوليات ضخامًا ، تجعلها على رأس قائمةِ من يتحملون النهوض بالأمة من جديد .

٢ - إن الأمة الآن أشد ما تكون احتياجًا إلى قائد مسلم يجمع كلمتها ، ويوحد رايتها ، ويحقق اللَّه - جلَّ وعلا - على يديه النصر .

وهذا القائد لن ينزل من السماء ، أو يخرج من الأرض ، وإنما سيولد من رحم امرأة ، ويتربى على يديها ، فهي التي ستضعه ، وتربيه ، وتقدمه للأمة بطلًا من أبطالها ، كما فعلت نساء السلف الصالح مع أبنائها ، من أمثال السيدة أسماء مع عبد اللَّه بن الزبير ، والخنساء مع أولادها الأربعة .

٣ - إن الأمة في مجموعها تحتاج إلى تربيةٍ إيمانيّةٍ ، تربيةٍ تعرّف المسلم الفرق بين الروح والجسد ، وقيمة الدنيا ، وقيمة الآخرة ، ومعنى الحياة ، ومعنى الموت .

وهذه التربية هي التي ستساعد القادة الأتقياء الأبطال أن يجدوا من حولهم الجنود المخلصين الذين يؤازرونهم ويدفعون بهم إلى ساحة المعركة ، ويفتح اللّه بهم وبأمثالهم .

وهذه التربية لن تتم إلا على أيدي سيدات فَهِمْنَ الإسلام حقَّ الفهم ، واستوعَبْنَه حق الاستيعاب ، ثم أرضعنه لأولادهن ، وغذين به قلوبهم وأرواحهم .

٤ - إن الأمة الآن في حالة استنفار عام ، تحتاج معه إلى أن يؤدي كل فرد منها واجبه نحو دينه بكل ما يملك ، وأن يسد الثغرة التي يقف عليها حتى تلتئم ، فتقوى الأمة ، ويسد خللها ، وتصبح جسدًا واحدًا يعمل للّه ، ولنصرةِ دين اللّه .

والمرأة هنا تقف على ثغر عظيم من ثغور الأمة وهو ثغر البيت المسلم ، والأسرة المسلمة التي تمثل الحصن الأخير لهذه الأمة ، فإن أحسنت الجهاد فيه ، وأدت دورها كما ينبغي ، فقد حمت الأمة من خطر عظيم ، ووطنها من فتنة كبيرة ، وساعدت في تعجيل النصر لها .

٥ - إن المرأة باب كبير من الأبواب التي ينفذ منه أعداء الإسلام في الماضي والحاضر .

يقول النبي ﷺ : « **ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء** » [1] .

---

(١) متفق عليه ؛ صحيح البخاري ، وهذا لفظه ، - كتاب النكاح - باب ما يتقى من شؤم المرأة ؛ وصحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة =

لذا فإن المرأة حينما تؤدي دورها ، وتحفظ عفتها ، وتصون نفسها تفسد على أعداء الإسلام مخططاتهم ، وتسد عليهم بابًا كبيرًا ينفذون إلى الإسلام من خلاله ، وهي بذلك تحمي نفسها ، وتذود عن دينها .

لهذه الأسباب وغيرها يعظم الحديث مع المرأة في الوقت الحالي ، ويشتد لدرجة الإلحاح المستمر ، فيجب عليها أن تفهم ، وتعمل ، وتدعو ، وتلتزم ، وتؤدي دورها نحو دينها وأمتها .

والحمد لله أن تاريخنا الإسلامي مليء بالشواهد والنماذج النسائية التي تؤكد أن المرأة نجحت في أداء مثل هذا الدور في الماضي ، وقامت بواجبها خير قيام في نواح عديدة من نواحي المجتمع ، كما سيتضح من خلال هذا البحث .

وهذا يؤكد أنها ستنجح في هذا العصر في أداء نفس الدور ، وأنها تحتاج فقط إلى من يأخذ بيدها ، ويقفها على طريق الحق ، ويشحذ عزيمتها لكي تمضي عليه ، ويقدم لها القدوة الصالحة التي تعينها على الوصول إلى نهايته ، وهذا ما أبغيه من وراء هذا الكتاب .

* * *

= والاستغفار – باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء .

ثالثًا : دفع شبهة أن الإسلام لم يطبق عمليًا إلا في عصر الصحابة فقط

يدعي بعض أعداء الإسلام ، ومَن لا علم له بحقيقة هذا الدين ، ولا المراحل التاريخية التي مرت بالمسلمين ، أن الإسلام بمبادئه وتشريعاته وأسسه وأحكامه ، لم يكن له وجود عملي على أرض الواقع إلَّا في العهد النبوي ، وعهد الخلفاء الراشدين الأربعة فقط ؛ وإن زاد بعضهم ، فيزيد العامين اللذين حكم فيهما الخليفة الخامس الراشد عمر بن عبد العزيز ﷺ ، وبقية السنوات والقرون الطوال التي عاشها الإسلام منذ أن بعث اللَّه نبيه محمدًا ﷺ إلى يومنا هذا ، كان الإسلام عبارة عن مبادئ قيمة ، وتشريعات فاضلة في القرآن الكريم والسنة المطهرة وبطون الكتب ، لا ترى النور ، ولا يلتزم بها المسلمون .

وهم يهدفون من وراء ترديد هذه الشبهة بهذا الشكل أو بأشكال أخرى ، إلى عدة أمور ، منها :

١ - بيان قصر عمر الإسلام في أرض الواقع ، حتى نستطيع أن نحصره - على زعمهم - في السنوات العشر التي عاشها النبي ﷺ في المدينة ، ثم في الثلاثين سنة التي هي عمر الخلافة الراشدة ، ثم في السنتين اللتين حكم فيهما سيدنا عمر بن عبد العزيز ﷺ فقط .

وبهذا يصبح مجموع عمر الإسلام - كما يريدون أن

يوهموا الناس - اثنين وأربعين عامًا .

٢ - إيهام الناس أن البشر لم يستطيعوا أن يتحملوا تطبيق الإسلام أكثر من هذا الزمن ، لصعوبةِ أحكامه ، وقسوةِ تشريعاته ، وعدم ملاءمتها لحال الناس ، فنفروا منه ، وعادوا أدراجهم إلى عاداتهم وتقاليدهم الأولى ، وانسلخوا من الإسلام كليًا .

٣ - الوصول إلى الهدف من وراء ذلك وهو أن الإسلام صعب التنفيذ الآن ، بل يستحيل أن يطبق في واقع الناس ؛ لأنه لم يطبق في الأجيال التي كانت قريبة من عهد النبوة ، فكيف بنا الآن وقد بَعُدَ البون بيننا وبين ذلك العهد ؟! لذا فإن من يطالب بتطبيق الشريعة ، أو العودة إلى الإسلام - كما يزعمون - يريد أن يُكْرِه الناس على أمرٍ لا يستطيعونه ، ولا يطيقه أحد منهم .

وللأسف الشديد ، قد يساعد هؤلاء في هذا الوهم الذي ينشرونه بين الناس بعض الدعاة ، والمفكرين الإسلاميين من أصحاب النوايا الطيبة ، من خلال تركيزهم الشديد على شخصية الصحابة ﷺ ، مع تهميشهم للمراحل التاريخية التي مرت بالمسلمين بعد عصر الصحابة ؛ أو من خلال عدم دراستهم الكافية للدول والشخصيات الإسلامية التي حكمت المسلمين بعد عصر الصحابة ﷺ .

وحتى نرد على أصحاب هذه الشبهة ، ونوضح الأمر

لإخواننا ، فإني أوجز القول في نقاط محددة بما يتناسب مع هذا التمهيد ، وذلك على النحو التالي :

١ - هذه الشبهة تتنافى مع حقائق الإسلام الأصيلة ، ومبادئه الثابتة ، من أنه دين عام وشامل ، يمتد في آماد الزمان طولًا ، وآفاق المكان عرضًا ، ويستوعب حياة الإنسان شمولًا ، ولا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا تعرض لها ، وهذا العموم والشمول خصيصة أساسية من الخصائص العامة للإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

وهذه الشبهة تريد أن تقصر الإسلام علي سنوات محدودة فقط ، وكأن الإسلام لم يأتِ إلا لها .

٢ - إن هذه الشبهة تطعن في ختم النبوات والرسالات برسالة سيدنا محمد ﷺ ؛ لأنها تتهمها بالقصور في استيعاب كل احتياجات البشر إلى قيام الساعة ، مما يستلزم - على حد شبهتهم - رسالة جديدة لهؤلاء الناس الذين لم يتحملوا الإسلام ، ولم يطيقوا تطبيقه .

٣ - بل إن هذا الكلام يطعن في الذات الإلهية - تعالى اللّٰه عما يقوله الظالمون علوًّا كبيرًا - حيث يستلزم فيها أن المولى - جل وعلا - لم يكن يدري أن هذه الأحكام لا تتناسب مع من سيولد بعد عصر الصحابة ، وأن طاقات

الناس بعد هذا العصر لن تتحمل هذه الأحكام .

٤ - أو ربما يأتي الطعن في اللّه ﷻ عن طريق أنه يريد إكراه الناس بعد عصر الصحابة على أحكام لا تتناسب مع حياتهم ومعيشتهم ، وفي هذا قسوةٌ عليهم أيما قسوةٍ .

٥ - إن كلامهم هذا يتناقض تمامًا مع الأحاديث النبوية الشريفة التي بينت أن الإسلام باقٍ إلى قيام الساعة ، وأن العزةَ والرفعةَ ستعود للمسلمين ، وسيكون النصر حليفهم في النهاية من مثل :

أ - قوله ﷺ : « **ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر اللّه وهم كذلك** » [١] .

ب - وقوله ﷺ : « **بشِّرْ هذه الأمة بالسناء ، والدين ، والرفعة ، والنصر ، والتمكين في الأرض** » [٢] .

جـ - وقوله ﷺ : « **إن اللّه زوى لي الأرض ، فرأيت**

---

(١) متفق عليه ؛ صحيح مسلم « وهذا لفظه » - كتاب الإمارة - باب قوله : « **لا تزال طائفة من أمتي ...** » ؛ وصحيح البخاري « بنحوه » - كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب قول النبي ﷺ : « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق** » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، (٥/١٣٤) ؛ وقال الحاكم في المستدرك : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، (٤/٣٤٦) ؛ وقال الهيثمي : رواه أحمد وابنه من طرق ورجال أحمد رجال الصحيح ، مجمع الزوائد (١٠/٢٢٠) .

مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها »[١] .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي سماها العلماء (المبشرات) ، فكيف يريد هؤلاء أن تكذب هذه الأحاديث ، ونصدقهم هم ؟!!

٦ - إن استدلالهم بما حدث بعد الخلافة الراشدة ، استدلال في غير محله ، وفهم مغلوطٌ وناقص لصورة الإسلام في العصور التالية .

والحقيقة أن المسلمين - عامةً - لم يتخل أحد منهم عن التمسك بدينه ، وعن الالتزام به في جميع أمور حياته الخاصة والعامة ، وكان القضاء والتشريع ، بل والدستور الذي يحكم المسلمين نابعًا من القرآن والسنة .

ولم يتجرأ أحد - حتى من الحكام الذين خالفوا الإسلام في بعض أمورهم الشخصية - أن يعلن انسلاخه من الإسلام ، أو تخليه عن الالتزام بالأحكام الإسلامية .

وذلك منذ عهد سيدنا معاوية ﷺ إلى آخر السلاطين العثمانيين ، قبل أن يعلن (كمال أتاتورك) إلغاء الخلافة في عام (١٩٢٤م) .

والدليل على ذلك - أيضًا - أن المرأة المسلمة ظلت ملتزمة بلباسها الشرعي عند خروجها من بيتها تمسكًا بمبادئ

(١) صحيح مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض .

الإسلام ، حتى أوائل القرن العشرين الميلادي ، حين نجح أعداء الإسلام في التغرير ببعض النساء المسلمات ، وجعلهن يعلنَّ عدم التزامهنَّ بمبادئ الإسلام .

والدليل على ذلك - أيضًا - أن اتساع رقعة الإسلام لم تتوقف عند عصر الصحابة ، بل على العكس ، لقد زادت هذه الرقعة آلاف المرات عما كانت عليه أيام الصحابة ، ودخلت - ولا تزال تدخل بحمد اللَّه - شعوب وجنسيات كثيرة في الإسلام لم تسمع بهم الصحابة ، وذلك عن طريق استمرار الفتوحات الإسلامية في جُلِّ العهد الأموي ، وبداية العهد العباسي ، وغالبية العهد العثماني ، وعن طريق التزام المسلمين بإسلامهم في معاملاتهم التجارية والسلوكية مع غير المسلمين ، مما جعلهم يدخلون في دين اللَّه أفواجًا .

٧ - إن هذه الشبهة جاءت لديهم من جهلهم بالإسلام حين حصروه في نطاق ضيق وهو نطاق تداول الحكم ، وكيفية تولية الخليفة ، أو النظام السياسي فقط ، وعمموا عدم تطبيق الإسلام كليًا في هذه الناحية على كل النواحي الاقتصادية والاجتماعية والتشريعية والقضائية والعسكرية الأخرى .

وهذا جهلٌ كبيرٌ ، فليس الإسلام هو نظام الحكم فقط - وإن كان من الأهمية بمكانٍ - ومع ذلك فقد كان هؤلاء الحكام يتحصنون بالإسلام ، ويتمسكون به - ولو ظاهرًا أمام العامة - حتى يخضع الناس لهم ويدينون لهم بالولاءِ والطاعةِ .

٨ - إن هؤلاء أغفلوا دور العلماء والفقهاء والدعاة في الأمة، وأن الأمة لم تُبنَ علميًّا وفكريًّا عن طريق التدوين والبحث والابتكار، إلَّا بعد عصر الصحابة ﷺ، فكيف يدَّعون ضياع الإسلام مع وجود كل هذه اليقظة الفكرية والنهضة العلمية ؟!

٩ - إن هؤلاء غفلوا عن الفترات الطويلة التي أعز اللّٰه ﷻ فيها الإسلام ببعض الحكام الذين اجتهدوا في الاقتداء بالنبي ﷺ وصحابته الأجلاء، وأسدوا للإسلام خدمات جليلة، وأعادوا الأمة إلى سابق عهدها في الريادة والقيادة بين الأمم، كهارون الرشيد، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، ومحمد الفاتح، وغيرهم الكثير والكثير .

١٠ - إن تمسك المسلمين بإسلامهم في الغالب، وبعدهم عن القرآن والسنة أحيانًا، لا يرجع إلى القرب أو البعد من عصر النبي ﷺ والصحابة، كلا، إنما يعود في الأساس إلى معرفة المسلم برسالته في الحياة، وأدائه لدوره فيها ؛ لذا، نرى في التاريخ الإسلامي فترات مدٍّ وازدهار للإسلام بين المسلمين، وفترات أخرى فيها تراجع وانحسار .

١١ - إن هناك نماذج صالحة، وقدوات طيبة على الالتزام بالإسلام والتمسك بمبادئه في كل عصر من العصور، لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك .

وقد جمعت في هذا الكتاب - بعون اللّٰه وتوفيقه -

كثيرًا من الصالحات من عصور مختلفة ، وركزت على العصر الحديث ، لكي أبينّ أن بيننا ومن عصرنا من يعمل للإسلام ، ويخلص له العمل ، حتى يستحق أن يصبح قدوةً صالحةً لغيره ، وهذا - والله أعلم - من أبلغ الرد على من يرددون هذه الشبهة ، ويثبطون بها عزائم الناس ، ويفترون على دين الله الكذب ، ويلصقون تهمًا باطلةً بالإسلام .

وقى الله ﷻ الإسلام شرهم ، ورد كيدهم في نحورهم ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف : ٥] .

* * *

هكذا طريق الصالحات

الفَصْلُ الأوّلُ

هكذا كانت عقيدتها وعبادتها

هكذا كانت عقيدتها وعبادتها

تتميز العقيدة الإسلامية بسهولتها ووضوحها ؛ فالله ﷻ هو الخالق لكل شيء ، وهو المالك لكل الكائنات ، وحق الخالق المالك أن يعبد ، وأن يطاع من خلقه .

يقول تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

ويقول - جل في علاه - : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

ويقول - تعالت عظمته - : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

ومن ثم جاءت كلمة التوحيد تحمل هذه الحقيقة المطلقة في ألفاظ واضحة : « لا إله إلَّا اللَّه » أي « لا معبود إلَّا اللَّه » .

والعبادة هي الصلة بين اللَّه ﷻ وبين خلقه ، هو رب وإله ، والكل عبيد له ؛ وهذه العبادة تقوم في الإسلام على العلاقة المباشرة بين اللَّه ﷻ وبين عباده ، فلا وساطة ، ولا كهانة ، ولا أنداد توصل إليه ، ولا أبناء ، ولا زوجة يتخذون سببًا لإرضائه ، كلا ، فالمسلم أوالمسلمة متى توجه إليه سبحانه وجد أبوابه مفتحة ؛ ومتى يمم وجهه شطره

وجده أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

والعبادة في الإسلام - أيضًا - تقوم على العدل والمساواة بين المخلوقين جميعًا أمام الله ﷻ ، فلا فضل لرجل على امرأة ، ولا امرأة على رجل ، ولا جنس على جنس ؛ فمن اتقى الله ﷻ وعمل صالحاً فهو الكريم عند الله ﷻ مهما كان نوعه أو لونه أو لغته .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ومن ثَمَّ ؛ فإن الإسلام لم يمنع المرأة يومًا من الأيام أن تصل إلى الدرجات العلى في الجنة بطاعتها لله [redacted] وعبادتها له ﷻ ، كما فعلت الديانات الأخرى المحرَّفة من حيث كانوا ينظرون إلى المرأة في هذا الجانب على أنها ليست أهلًا للوصول إلى رضوان الله ؛ إما لأنها من الأصل لا تصلح لذلك لتلبسها بالشيطان وتلبس الشيطان بها ، وإما لأن طبيعتها لا تؤهلها لذلك لعظيم شهوتها وغلبةِ عاطفتها ، وإما لكونها سبب خطيئة آدم .

« في القرن الخامس الميلادي انعقد مجمع (ماكون

المسيحي المقدس) للنظر في حقيقة المرأة ؛ هل هي جسم بلا روح أم أنها كالرجال ؟

وكان القرار : أن المرأة لها روح شريرة غير ناجية من العذاب فيما عدا أم المسيح ، فإنها وحدها ذات روح ناجية من عذاب النار ، بل من علمائهم من أبدى أن النساء خطيئةٌ جسيمةٌ ، وأجسامهن من عمل الشيطان ، ويجب أن نلعَنـهـنَّ .

وفي سنة (٥٨٦م) انعقد مؤتمر في فرنسا للبحث : هل المرأة من البشر أم لا ؟ وكان القرار أنها إنسان خُلِقَ لخدمةِ الرجال فقط » [١] .

أما الإسلام فقد برئ من ذلك كله بالنسبة للمرأة ؛ واسمع ما يقوله القرآن الكريم في ذلك :

قال - جل في علاه - : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

ويقول - جلَّتْ حكمته - : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون - د/ مصطفى السباعي - (ص١٦) - الطبعة الأولى - دار السلام - سنة (١٩٩٨م) .

أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

فالمرأة في الإسلام إذا اجتهدت في طاعة الله ﷻ والقرب منه والتبتل إليه ، سبقت الرجال الكسالى القاعدين ، وحظيت بالمنزلة العظمى عند الله ﷻ .

كما حدَّث النبي ﷺ عن الرُّمَيْصَاء بنت ملحان أم سيدنا أنس بن مالك ﷺ فقال : « رأيتني دخلت الجنة ، فإذا أنا بالرميصاء ، امرأة أبي طلحة » (١) .

وكما ذكر ﷺ عن المرأة التي تأيمت على أولادها ، ولم تتزوج بعد وفاة زوجها حتى تربيهم تربيةً حسنةً ؛ قال ﷺ : « **أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة** ، [وأومأ (الراوي) بالوسطى والسبابة] **امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا** » (٢) .

وقد وعت المرأة المسلمة الصالحة هذه الحقيقة جيدًا فشمَّرت عن ساعد الجد ، وتوجهت نحو العقيدة الصافية ،

---

(١) صحيح البخاري – كتاب فضائل الصحابة – باب مناقب عمر بن الخطاب – (ح/٣٦٧٩) .

(٢) سنن أبي داوود – كتاب الأدب – باب في فضل من عال يتامى – (ح/٤٤٨٢) .

فملأت بها قلبها ، ونحو العبادة الخالصة فشغلت بها نفسها ؛ حتى صارت مثلًا يحتذى في هذا الجانب ، وطار ذكرها في الآفاق هنا وهناك لدرجة أن الإمام ، ابن الجوزي » رَحِمَهُ اللَّهُ في مؤلَّفه القيِّم « صفة الصفوة » كلما ذكر طبقة من العابدين في بلد من البلاد أتبعه بذكر العابدات الشهيرات في هذا البلد ؛ وذَكَرَ من حالهن وكلامهن ما تنبهر به الألباب .

وإذا أردنا – بعد هذه المقدمة – أن نقدم نماذج وصورًا للأخت المسلمة من حياة الصالحات في جانب العقيدة والعبادة لكي تقتدي بها ، وتتمثل اجتهادها ومشاعرها ؛ فإن هذه النماذج تجل عن الحصر ، ولكن حسبنا أن نعيش مع بعض الصفات والعبادات التي برزت فيها الصالحات لكي نستقي منها الدرس والعظة والعبرة من باب « ما لا يُدرك كلُّه لا يُترك جُلُّه » ، وذلك على النحو التالي :

أولًا ، حسن توكلها على الله ﷻ وثقتها به :

وثقت المرأة المسلمة الصالحة من سلفنا الصالح في اللَّه ﷻ ثقةً ، ما بعدها ثقة ، واعتمدت عليه ﷻ في أمورها كلِّها ، وأظهرت من حسن التوكل الحقيقي على اللَّه ﷻ ما جعل منها مدرسة في هذا الجانب العقدي الهَامِّ في قلب المسلم ؛ فكانت لا تطمع إلا في اللَّه ، ولا ترجو أحدًا سواه .

كما حدث مع زوجة شقيق البلخي رَحِمَهُ اللَّهُ حين خرج إلى

الجهاد . فجاء أحد إخوانه يسأل عنه ؛ فقالت : خرج إلى الجهاد ؛ فقال : وما خلَّف لكم ؟ فقالت : أرازق شقيق أم مرزوق ؟ فقال : بل مرزوق ؛ فقالت : إن المرزوق خلف علينا الرازق ، يا هذا لا تعد إلينا فتفسد على اللَّه قلوبنا (١) .

وكما حدث مع سيدنا عبد اللَّه بن المبارك وسيدنا سفيان الثوري حين زارا أم حسان الكوفية ؛ فلم يريا في بيتها شيئًا سوى قطعة حصير خَلِقَة ؛ فقال لها الثوري : لو كتبت رقعة إلى بعض بني أعمامك لغيَّروا من سوء حالك ؛ فقالت : يا سفيان لقد كنت في عيني أعظم . وفي قلبي أكبر منذ ساعتك هذه ، إني ما أسأل الدنيا من يقدر عليها ويملكها ويحكم فيها ، فكيف أسأل من لا يقدر عليها ولا يقضي ولا يحكم فيها ؟! يا سفيان واللَّه ما أحب أن يأتي عليَّ وقت وأنا متشاغلةٌ فيه عن اللَّه تعالى بغير اللَّه تعالى ؛ فأبكت سفيان (٢) .

وعن حماد بن سلمة رَحِمَهُ اللَّهُ قال : ألح المطر علينا سنة من السنين . وفي جواري امرأة من المتعبدات لها بنات أيتام ، فوكف (٣) السقف عليهم فسمعتها تقول : يا رفيق ارفق بي ،

(١) محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني - (٥١٥/١) .

(٢) صفة الصفوة للإمام ابن الجوزى - (١٨٨/٣) - طبعة ثانية - دار المعرفة - بيروت - سنة (١٩٧٩م) .

(٣) وكف السقف : سال وقطر منه الماء قليلًا قليلًا ، المعجم الوجيز - (ص٦٨٠) - طبعة وزارة التربية والتعليم - سنة (١٩٩٧م) .

فسكن المطر ، فأخذتُ صُرَّة فيها عشرة دنانير وقرعت بابها ؛ فقالت : اجعله حمَّادَ بن سلمة ، فقلت : أنا حماد ، سمعتك وقد تأذيت بالمطر فقلتِ : يا رفيق ارفق بنا ، فما بلغ من رفقه بك ؟ فقالت : سكَّن المطر ، وأدفأ الصبيان ، وجفف البيت ؛ قال : فأخرجت الدنانير وقلت : انتفعي بهذه .. فقالت : يا حماد رُدَّ - عافاك اللَّه - دنانيرك إلى الموضع الذي أخرجتها منه ، فإنا رفعنا حوائجنا إلى من يقبل الودائع ، ولا يبخس العاملين (١) .

وكأني بهؤلاء الصالحات ينظرن ويتعلمن من صنيع السيدة هاجر عليها السلام حين تركها خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام هي وابنها بجوار بيت اللَّه الحرام في صحراء مكة حيث لا أنيسَ ، ولا جليسَ ، ولا زرعَ ، ولا ماءَ ؛ فقالت له : اللَّه أمرك بهذا ؟ فقال : نعم ؛ قالت : إذن لا يضيعنا (٢) .

ولكن ليس معنى هذا أن المسلم لا يأخذ بالأسباب ، أَوْ لا يسعى لرزقه ، أو يترك أولاده جياعًا ثم يمضي .. كلَّا كلَّا .

بل إن النماذج التي بين أيدينا تعطينا الدرس والعبرة في ثقة المسلمة بربها واعتمادها عليه - وحدَهُ - وتعففها عن سؤال غيره ، وهذه الثقة وهذا التوكل من عمل القلب لا

---

(١) صفة الصفوة - (٤/ ٤٩، ٥٠) « بتصرف واختصار » .

(٢) صحيح البخاري - الجزء الثاني - كتاب الأنبياء - باب يزفون .

من عمل الجوارح ؛ فقد ترى زوجة شقيق البلخي بعد خروج زوجها تسعى تلتمس الرزق ، أو أن شقيقًا ترك لها ما يكفيها إلاّ أنها أرادت أن تلقن السائل درسًا بليغًا في حسن التوكل على اللَّه ﷻ ، فهي لا تعتمد على ما خلَّفه لها شقيق ، إنما تعتمد على اللَّه الذي لا تنفد خزائنه .

قال تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] .

وكذا أم حسان جارة حماد لا تسأل إلا اللَّه لعلمها بأنه هو الذي يملك أن يسخر لها من الأسباب ما يشاء ؛ ثم هي تستحي أن تطلب الدنيا ثقة منها في رزقها المقسوم لها ؛ وإنما تجعل همها في الآخرة وفي القرب منه ﷻ .

ثانيًا : رضا المرأة الصالحة بما قسم اللَّه لها :

وهذا الرضا لصيق الصلة بالتوكل في قلب المسلمة الصالحة ؛ فهي حين وثقت في اللَّه ، وأحسنت التوكل عليه ، ملأ الرضا قلبها فأودع في نفسها السكينة والطمأنينة ، وفي جوارحها الراحة والهناء ، وكسى وجهها بنور السعادة التي حدَّث عنها المصطفى ﷺ حين قال : « **من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى اللَّه له** » [1] .

وقد فهمت المرأة المسلمة الصالحة معنى الرضا بما قسم اللَّه لها على وجهه الحقيقي ، فلم تقعد وتركن إلى الكسل

---

(١) سنن الترمذي – المجلَّد الثالث – كتاب القدر – باب ما جاء في الرضا بالقضاء » وقال : حديث غريب .

أو التسول ؛ بل عملت ورضيَتْ ، وسعت وقنعت ، فكانت في أعلى مقام الراضين عن اللَّه ﷻ .

كان الربيع بن خيثم رَحِمَهُ اللَّهُ يمر بامرأة لها غنم ، فكانت تأتي إلى عنيزة فتحلبها ثم تسقيه ؛ فقال لها في اليوم الثالث : يا هذه لِمَ لا تسقيني من غير هذه العنز ؟ قالت : يا عبد اللَّه إنها ليست لي ؛ قال : فلِمَ تسقيني من هذه ؟ فقالت : إن هذه مُنِحْتُها أشرب من لبنها وأسقي من شئت ، قال : فليس لك من العمل أكثر مما أرى ؟ قالت : لا ؛ إلا أني ما أصبحت على حال قط فتمنيت أني على حال سواها رضًا بما قسم اللَّه لي [1] .

وأورد ابن قتيبة خبر أم غسان الأعرابية ، تلك العابدة الزاهدة المكفوفة البصر ، التي كانت تعيش بمغزلها وتقول : الحمد للَّه على ما قضى وارتضى ؛ رضيت من اللَّه ما رضي لي ؛ وأستعين باللَّه على بيتٍ ضيِّق الفِنَاء ، قليل الكواء ؛ وأستعين باللَّه على ما يطالع من نواحيه [2] .

ودخل سيدنا سفيان الثوري على السيدة رابعة فقال : اللهم ارضَ عني ؛ فقالت : أما تستحي من اللَّه أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؛ فقال : أستغفر اللَّه ؛ فقال جعفر بن سليمان : فمتى يكون العبد راضيًا عن اللَّه تعالى ؟

---

(١) صفة الصفوة - (١٩٢،١٩١/٣) « بتصرف واختصار » .

(٢) عيون الأخبار - (٣١٩/٢) - طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة - ضمن سلسلة الذخائر - رقم (١٠٢) .

قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة [١] .

فالمرأتان الأُوْلَيَان تقدمان لنا الفهم الصحيح للرضا ، لا كما يتصوره البعض من أنه ينافي السعي والعمل ، فالأولى راعية للغنم ؛ والثانية مكفوفة البصر تعمل بمغزلها ؛ وهذا يفتح الباب أمام المسلمة لتنفع نفسها ، وتساهم في إصلاح مجتمعها - كما سيأتي الحديث عن دور المرأة في العمل الصالح في فصل قادم بمشيئة الله تعالى - .

أما السيدة رابعة فتشرح لنا معنى قول الله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [البينة : ٨] ؛ فتبين أن ما يقع في كون الله ﷻ من نِعَم أو نِقَم من الله - وحده - فيجب على العبد أن يرضى عن الله ﷻ في هذا وذاك .

ثالثًا : خوفها وخشيتها من الله ﷻ :

والخوف والخشية من الله ﷻ لُبُّ العقيدة الصحيحة ؛ فمن عرف الله حق معرفته خَشِيَهُ حقَّ الخشية ، وخاف منه حق الخوف ؛ وكلما ازدادت معرفته به - جل علاه - كلما علت خشيته ؛ وازداد خوفه ، وأقر له بالعظمة والجلال .

ولذا كان النبي ﷺ أشد الناس خشية لله ﷻ ؛ لأنه أعرفهم بالله وأعلمهم به .

(١) إحياء علوم الدين - (٣١٨/٤) - ط/ دار النور الإسلامية ببيروت - لبنان - د.ت .

قال ﷺ : « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له » (١) ؛ وكان العلماء من أشد العباد خشية له ﷻ لمعرفتهم بعظمته في خلقه وقوة جبروته وسلطانه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨] .

ومن علامة الخوف من الله ﷻ وشدة الخشية له طول الحزن الذي يملأ القلب ، وكثرة الدمع الذي يملأ العين ؛ كما كان النبي ﷺ في صلاته ، وعند سماعه للقرآن ، وعند ذكره للجنة والنار .

عن عبد الله بن الشِّخير ﷺ قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل (يعني يبكي) (٢) .

وحين قرأ سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ صدر سورة النساء على النبي ﷺ ، وأتى على قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ قال : « أمسك » فإذا عيناه تذرفان (٣) .

---

(١) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب الترغيب في النكاح - (ح/٥٠٦٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه - كتاب الصلاة - باب البكاء في الصلاة ؛ والنَّسائي في سننه - كتاب السهو - باب البكاء في الصلاة .

(٣) صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] - (ح/٤٥٨٢) ؛ وصحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين - باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر .

وقال ﷺ : « عرضت عليَّ الجنة والنار فلم أر كاليوم من الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا » [١] ؛ فما أتى على أصحاب رسول اللَّه ﷺ يومٌ أشدُّ منه .

والنساء المسلمات الصالحات أخذن حظهن الوافر من ذلك ، حتى كنَّ مثلًا يحتذى في شدة الخوف من اللَّه ﷻ وعظيم الخشية له .

فها هي ذا مطيعة العابدة تبكي للَّه أربعين سنة ، حتى عُوتِبَتْ في كثرة بكائها ، فقالت : لا أزال أبكي حتى أعلم على أي الحالين أنا عند اللَّه ؟ [٢] .

ويدخل سيدنا الحسن البصرى رَحِمَهُ اللَّهُ على بَرَدَة الصريمية فيقول لها : يا بردة إن لبدنك عليك حقًا ، وإن لبصرك عليك حقًا ؛ فتقول له : يا أبا سعيد إن أكن من أهل الجنة فسيبدلني اللَّه بصرًا خيرًا من بصري ، وإن أكن من أهل النار فأبعد اللَّه بصري [٣] .

وهذه رابعة رَحِمَهَا اللَّهُ كانت كثيرة البكاء ، فقرأ رجل عندها آية من القرآن فيها ذكر النار فصاحت ثم سقطت [٤] .

(١) صحيح مسلم – الجزء الرابع – كتاب الفضائل – باب توقيره ﷺ ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ، أو لا يتعلق به تكليف ، وما لا يقع ، ونحو ذلك .

(٢) صفة الصفوة – (٤١/٤) . (٣) السابق – (٣٦/٤) .

(٤) السابق – (٢٧/٤) .

وها هي شعوانة العابدة التي عرفت بكثرةِ بكائها وشدةِ خوفها ، حتى قيل لها في ذلك ، فقالت : واللّٰه لوددت أني أبكي حتى تنفد دموعي ، ثم أبكي الدماء حتى لا تبقى في جسدي جارحة فيها قطرة دم ، وأنَّى لي البكاء ؟

ومن كلامها المعبر عن حالها : من استطاع منكم أن يبكي فَلْيَبْكِ وإلَّا فليرحم الباكي ، فإن الباكي يبكي لمعرفته بما أتى إلى نفسه ؛ وكانت تنوح بهذين البيتين :

يؤمــل دنيــا لتبقــى لــه
فــوافى المنيــة قبــل الأمــل
حثيثًا يروي أصـول الفسيل
فعاش الفسيل ومات الرجل (١)

أما زجلة العابدة فهي تتمثل بقول سيدنا أبي هريرة ﷺ في الحديث : « وَاللّٰهِ ! لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ » (٢) ، فحينما يذكّرونها بعفو اللّٰه ﷻ حتى تخفف عن نفسها ، تقول : علمي بنفسي قرَّح (٣) فؤادي ، وكَلَمَ (٤) قلبي ؛ واللّٰه لوددت أن اللّٰه لم يخلقني ولم أك شيئًا مذكورًا (٥) .

(١) صفة الصفوة - (٥٦،٥٥) « بتصرف واختصار » .
(٢) سنن ابن ماجه - باب الحزن والبكاء ؛ والترمذي - كتاب الزهد ، وقال : حديث حسن غريب .
(٣) قرَّح : جرَّح . (٤) كلم : جرح .
(٥) صفة الصفوة - (٤٠/٤) .

وغلب عليهنَّ - رحمهنَّ اللَّه - الخوف حتى كان ما يعده الناس سرورًا باعثًا لهن على البكاء ؛ لأنه يحمل عندهن معنى آخر غير ما يراه الناس .

عن يحيى بن راشد قال : كنا عند عفيرة العابدة ، فقدم ابن أخ لها كانت طالت غيبته ، فبُشِّرت به ، فبكت ؛ فقيل لها : ما هذا البكاء ؟ اليوم يوم فرح وسرور ؛ فازدادت بكاء ثم قالت : واللَّه ما أجد للسرور في قلبي مسكنًا مع ذكر الآخرة ؛ لقد أذكرني قدومه يوم القدوم على اللَّه ، فما بين مسرور ومثبور ، ثم غُشِيَ عليها (١) .

وهذا الخوف لم يكن مجرد دموع تنزل ، أو عبرات تنهمر ، بل كان سائقًا لهُن إلى مراقبة اللَّه ﷻ واستحضار عظمته - كما سنرى في الصفة القادمة - .

رابعًا : مراقبتها لله ﷻ .

أثمر خوف المسلمة الصالحة من اللَّه ﷻ وخشيتها له حسنَ مراقبتها له في شؤونها كلها ؛ فمنعتها هذه المراقبة عن معصية اللَّه ﷻ وحثتها على الاجتهاد في طاعة اللَّه ﷻ ، وهي في ذلك تقدم النموذج العملي لتطبيق حديث النبي ﷺ : « **اعبد اللَّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » (٢) .

---

(١) صفة الصفوة - (٣٤/٤) .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الإيمان - باب سؤال جبريل ﷺ النبي ﷺ =

ومما وعت كتب التاريخ في حسن مراقبة المرأة الصالحة لله ﷻ حديث الصبية مع أمها في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ، والذي كان على النحو التالي :

قال أسلم : بينما أنا مع عمر بن الخطاب ﷺ وهو يعس بالليل إذ أعيا واتكأ على جانب جدار ، وإذا امرأة تقول لابنتها : يا ابنتاه ، قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ! فقالت لها : يا أماه أَوَمَا علمت ما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم؟ قالت : وما كان من عزمته يا بنية ؟ قالت : إنه أمر مناديًا فنادى ألا يُشَابَ اللبنُ بالماء ؛ فقالت لها : يا بنية قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر ؛ فقالت البنت لأمها : يا أماه ما كنت لأطيع الله ﷻ في الملأ ، وأعصيه في الخلاء .

وعمر يسمع كل ذلك ؛ فقال : يا أسلم علِّم الباب واعرف الموضع .. فلما أصبح قال : يا أسلم ، امض فانظر من القائلة ؟ ومن المقول لها ؟ وهل لهم من بعل ؟ فأتيت الموضع فإذا الجارية أيِّمٌ لا بعل لها ، وإذا تيك أمها ، وإذ ليس لهم رجل ؛ فأتيت عمر بن الخطاب ﷺ فأخبرته ، فدعا عمر ولده فجمعهم فقال : هل فيكم من يحتاج إلى امرأةٍ ، أزوجه؟ لو كان بأبيكم حركة إلى النساء ما سبق منكم

= عن الإيمان والإسلام والإحسان ؛ وصحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب تعريف الإيمان والإسلام .

أحد إلى هذه المرأة ؛ فقال عبد اللّه : لي زوجة ، وقال عبد الرحمن : لي زوجة ، وقال عاصم : يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني ؛ فبعث إلى الجارية فزوجها من عاصم ، فولدت لعاصم بنتًا وولدت البنت عمر بن عبد العزيز ﷺ (١) .

فانظري .. كيف كان ثواب طاعتها للّه ﷻ ، وإخلاصها له في السر والعلن ، وحسن مراقبتها ، أَنْ تزوجت بابن أمير المؤمنين ، وجاء من نسلها الخليفة الخامس الراشد عمر بن عبد العزيز ﷺ .

وقد حفظت مراقبة اللّه ﷻ المرأة المسلمة من خطر عظيم ؛ فصانت عرضها ؛ ولقنت غيرها درسًا في خشية اللّه ﷻ والخوف منه ؛ قال الأصمعي : قال أعرابي : خرجت في ليلة ظلماء فإذا أنا بجارية كأنها علم ؛ فأردْتُها فقالت : ويلك أما لك زاجر من عقل إذا لم يكن لك ناهٍ من دين ؟ فقلت : إيهًا واللّهِ ما يرانا إلا الكواكب ؛ فقالت : وأين مُكوكِبها ؟ (٢) .

أما عفيرة العابدة فإن المراقبة دفعتها إلى الجد والاجتهاد في طاعة اللّه ﷻ حتى أذهبت النوم من عينيها ؛ فلما قال لها روح ابن سلمة الوراق : بلغني أنك لا تنامين بالليل ؛ فبكت وقالت :

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي - (ص١٠،١١) - الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت - سنة (١٩٨٤م) .

(٢) صفة الصفوة - (٣٩٥/٤) .

ربما اشتهيت أن أنام فلا أقدر عليه ؛ وكيف ينام أو كيف يقدر على النوم من لا ينام عنه حافظاه ليلًا ولا نهارًا ؟! [(١)] .

خامسًا : علو همتها في طاعة الله ﷻ :

وهذه الهمة العالية تظهر في إقبال المرأة المسلمة الصالحة على عبادة اللَّه ﷻ واشتغالها بطاعته عن كل شيء ، وجدها ومبادرتها في العمل الصالح خوفًا من حلول الأجل قبل إحسان العمل ، فمعرفتها بالآخرة سائق لها نحو الهمة العالية ، ودافع لها إلى طلب العلا فيما عند اللَّه ﷻ ، واغتنام الأوقات والأنفاس قبل فواتها ؛ والسبب في ذلك أن خوفها وخشيتها وحسن مراقبتها للَّه ﷻ حثتها على هذا الإسراع كما أخبر النبي ﷺ في الحديث : « **من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة اللَّه غالية ، ألا إن سلعة اللَّه الجنة** » [(٢)] .

وهاك أمثلةً على هذه الهمة العالية التي تتضاءل بجانبها همم الرجال :

قال مالك بن دينار رحمه الله : بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بامرأة جَهيرَةٍ في الحجر وهي تقول : أتيتك من شُقَّةٍ بعيدةٍ مؤملة لمعروفك ، فأنلني معروفًا من معروفك تغنيني به عن

(١) السابق - (٣٣/٤) .

(٢) الترمذي - كتاب صفة القيامة - باب (١٨) ، وقال : حديث حسن غريب .

معروف من سواك يا معروفًا بالمعروف .

فعرَّفت أيوب السختياني ، فسألنا عن منزلها وقصدناها وسلمنا عليها ؛ فقال لها أيوب : قولي خيرًا يرحمك اللَّه ؛ قالت : وما أقول ، أشكو إلى اللَّه قلبي وهواي فقد أضرا بي وشغلاني عن عبادة ربي ؛ قُوما فأنا أبادر طي صحيفتي [(١)] .

ومعنى (أبادر طي صحيفتي) أي أسابق الأجل قبل أن ينزل بي ، فينتهي عملي ، ويختم على صحيفة أعمالي بخيرها وشرها ؛ فهي تعلم أن الدنيا دار عمل بلا حساب ، والآخرة دار حساب بلا عمل .

ويتضح هذا المعنى أكثر بقول عابدة أخرى شعرت بنفس الشعور ، فأداها ذلك إلى الاجتهاد في العبادة والطاعة ، وهي زجلة العابدة ؛ وقد قيل لها : ارفقي بنفسك ، فقالت : ما لي وللرفق بها ؟ فإنما هي أيام مبادرة ، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غدًا ؛ واللَّه يا إخوتاه لأصليَن له ما أقلتني جوارحي ، ولأصومن له أيام حياتي ، ولأبكين له ما حملت الماءَ عيناي ؛ ثم قالت : أيكم يأمر عبده بأمر فيحب أن يقصر فيه ؟! [(٢)] .

ويزداد المعنى وضوحًا بقول جارية خالد الوراق حين

---

(١) صفة الصفوة - (٢٠١/٢) « بتصرف » ؛ وهي ملكية بنت المنكدر رَحِمَهَا اللَّهُ .

(٢) صفة الصفوة - (٤٠/٤) .

دخل عليها خالد - وكانت شديدة الاجتهاد - فأخبرها برفق اللَّه وقبوله يسيرَ العمل ، فبكت ثم قالت : يا خالد إني لأؤمل من اللَّه ﷻ آمالًا لو حملتها الجبال لأشفقت من حملها ، وإني لأعلم أن في كرم اللَّه مستغاثًا لكل مذنب ، ولكن كيف لي بحسرةِ السباق ؟ قال : قلت : وما حسرة السباق ؟ قالت : غداةَ الحشر إذا بعثر ما في القبور وركب الأبرار نجائب الأعمال فاستبقوا إلى الصراط ؛ وعزة سيدي لا يسبق مقصر مجتهدًا أبدًا ولو حَبَا المجد حبوًا ، أم كيف لي بموت الحزن والكَمَد إذا رأيت القوم يتراكضون ، وقد رفعت أعلام المحسنين ، وجاز الصراط المشتاقون ، ووصل إلى اللَّه المحبون ، وخُلِّفت مع المسيئين المذنبين ؟ ثم بكت وقالت : يا خالد انظر لا يقطعك قاطع عن سرعة المبادرة بالأعمال ، فإنه ليس بين الدارين دارٌ يَدرِك فيها الخُدام ما فاتهم من الخدمة ؛ فويل لمن قصر في خدمة سيده ومعه الآمال ، فهلا كانت الأعمال توقظه إذا نام البطالون ؟! [1] .

وهذه الهمة العالية ظهرت أكثر ما يكون في عبادة حببت إلى المسلمات الصالحات ، وهي عبادة قيام الليل ، وإليك الحديث عنها :

سادسًا : اجتهادها في قيام الليل .

من العبادات التي اجتهدت فيها المرأة المسلمة الصالحة

---

(١) صفة الصفوة - (٤/٤٦،٤٧) « بتصرف » .

قيام الليل ، حيث تقف بين يدي خالقها في جو من الصفاء والإخلاص والحب ، تناجيه بقلبها وجوارحها ، وتتبتل إليه بما يفيض عليها من ذكر وصلاة وقرآن .

فالليل هو حياة الصالحين والصالحات ، كما قال ﷺ : « **عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ؛ وإن قيام الليل قربة إلى الله ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسيئات ، ومطردة للداء عن الجسد** » [١] .

ومن ثَم ، كانت المرأة الصالحة تسعد بقدوم الليل سعادة ما بعدها سعادة ، ولْنَسْمع ما تقوله أم هارون الشامية - رحمها الله - عن الليل ؛ كانت تقول : بأبي اللَّيل ما أطيبَهُ ، إني لأغتم بالنهار حتى يجيء الليل ، فإذا جاء الليل قمت أوله ، فإذا جاء السحر دخل الرَّوح [٢] قلبي [٣] .

وهذا لأن الليل يقربهنَّ من محبوبهنَّ الأوحد ، وهو الله - جل وعلا - .

كانت فاطمة بنت المنكدر تصوم النهار ، فإذا جنَّها الليل تنادي بصوت حزين : هدأ الليل ، واختلط الظلام ، وآوى كل حبيب إلى حبيبه ، وخلوتي بك أيها المحبوب أن تعتقني من النار [٤] .

---

(١) سنن الترمذي - المجلد الخامس - أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ ، وقال : حديث غريب .
(٢) الرَّوح : الفرح والراحة .
(٣) صفة الصفوة - (٣٠٣/٤) .
(٤) السابق - (٢٠٢/٢) .

ولأن الليل يذكرهم بطول الرقاد في القبور ، إما في رياض الجنان ، وإما في حفر النيران ؛ لذا هم يحبون الليل هنا ليتنعموا هناك .

كانت معاذة بنت عبد اللّٰه العدوية تحيي الليل صلاة ، فإذا غلبها النوم قامت فجالت في الدار وهي تقول : يا نفس ، النوم أمامك لو قد مت لطالت رقدتك في القبر على حسرة أو سرور ، حتى تصبح ؛ وكانت تقول : عجبت لعين تنام وقد علمت طول الرقاد في ظلم القبور [١] .

وهذه أمثلة قليلة من كثير من أحوال الصالحات في الليل ، ومدى شغفهنَّ بهذه العبادة التي تربي صاحبها على الإخلاص للّٰه ﷻ .

ومع ذلك فقد كن على وجل من أن ترد عليهنَّ هذه العبادة وهذا القيام ؛ كانت حبيبة العدوية - رحمها اللّٰه - إذا صلت العَتَمة (العشاء) قامت على سطح فشدت عليها درعها وخمارها ؛ فقالت : إلهي ، غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها وبابك مفتوح ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك .

فإذا كان السحر قالت : اللّٰهم وهذا الليل قد أدبر ، وهذا النهار قد أسفر ، فليت شعري هل قبلت مني ليلتي فأهنأ ، أم رددتها عليَّ فأعزى ؛ فوعزَّتك لهذا دأبي ودأبك

---

(١) السابق - (٢٢/٤) .

ما أبقيتني ؛ وعزتك لو انتهرتني ما برحت من بابك ، ولا وقع في قلبي غير جودك وكرمك [١] .

وهكذا تقدم المسلمات الصالحات أروع الأمثلة في إعلاء شرفهن عند الله ﷻ من خلال طريق الشرف ؛ الذي دل عليه الحبيب المصطفى ﷺ حين قال : « **شرف المؤمن قيام بالليل** » [٢] .

ويعطِيْنَ درسًا بليغًا للخاملين النائمين حين يذكرونهنَّ بطول الرقاد في القبور ، وما يكون فيها من أحوال وأهوال على قدر عمل الإنسان ؛ فمن طال رقاده هنا قل منامه هناك ، ومن قل منامه هنا طال رقاده هناك ، فلننظر أي الحالين نختار ، وبأي الرقدتين نضحي ؟!

سابعًا : إخلاصها في عبادة ربها وحبها لطاعته :

هذا الإخلاص يظهر في إقبال المرأة الصالحة على العبادة ، وحبها الشديد لها حتى تستغرق عليها حياتها ، فإذا دخلت فيها انقطعت عن سواها ، فلا تسمع كلام من حولها ، ولا تراهم ؛ وإذا تفكرت فيها شغلتها عن كل تفكير آخر ، لدرجة أنها تطلب أشق العبادات ، وتحزن عند

---

(١) صفة الصفوة - ٣٢/٤ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه - (٣٦٠/٤) - الطبعة الأولي - دار الكتب العلمية - بيروت - سنة (١٩٩٠م) ؛ وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن - مجمع الزوائد - باب الإيجاز في الموعظة - (٢١٩/١٠) - طبعة دار الريان للتراث - القاهرة - سنة (١٤٠٧هـ) .

الموت لا للدنيا وما تركته خلفها . كلَّا ، إنما لتركها العبادة والطاعة ؛ وإليك بعضًا من هذه النماذج على ذلك :

كانت أم البنين بنت عبد العزيز رضي الله عنها أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تبعث إلى نسائها فيجتمعن ، ويتحدثن عندها ، وهي قائمة تصلي ، ثم تنصرف إليهن وتقول : أحب حديثكنَّ ، فإذا قمت في صلاتي لهوت عنكنَّ ونسيتكنَّ (١) .

وعن هشام بن حسان أن حفصة بنت سيرين - رحمها الله - كانت تدخل في مسجدها فتصلي فيه الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح ، ثم لا تزال فيه حتى يرتفع النهار وتركع ثم تخرج فيكون عند ذلك وضوؤها ونومها حتى إذا حضرت الصلاة عادت إلى مسجدها إلى مثلها (٢) .

وعن ميمون بن مهران قال : ما دخلت على أم الدرداء (الصغرى) في ساعة صلاة إلا وجدتها مصلية (٣) .

وعن محمد بن سليمان بن بلال بن أبي الدرداء أن أمه عثامة كُفَّ بصرُها . فدخل عليها ابنها يومًا وقد صلى ، فقالت : أصليتم أي بني ؟ قال : نعم ، فقالت :

عثام ما لك لاهيه
حلت بدارك داهيه

---

(١) صفة الصفوة - (٢٩٩/٤) . (٢) السابق - (٢٤/٤) .
(٣) السابق - (٢٩٦/٤) .

ابكـي الصـلاة لـوقتـهـا
إن كـنـت يـومًـا بـاكـيـه
وابكـي القـران إذا تـلـي
قـد كـنـت يـومـًا تـاليـه
تـتـلـيـنـه بـتـفـكـر
ودمـوع عـينك جـاريـه
فـاليـوم لا تـتـلـينـه
إلا وعـنـدك تـاليـه
لـهـفـي عليـك صبـابـةً
ما عشـت طـول حياتيـه [1]

وكانت مولاة لإبراهيم النخعي تعمد إلى اليوم الشديد الحر فتصومه ؛ فقيل لها في ذلك ، قالت : إن السعر إذا رخص اشتراه كل أحد [2] .

ولما احتضرت معاذة العدوية بكت ثم ضحكت ؛ فقيل لها : مم بكيت ثم ضحكت ؟ قالت : أما البكاء الذي رأيتم فإني ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر فكان البكاء لذلك ، وأما الضحك فإني نظرت إلى أبي الصهباء

---

(١) ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات لأبي عبد الرحمن السلمي - ص٤٦ - ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة (١٩٩٩م) .

(٢) صفة الصفوة - (٤/٤٦) .

(زوجها وكان قد استشهد) قد أقبل في صحن الدار وعليه حلتان خضراوان وهو في نفر ، والله ما رأيت لهم في الدنيا شبهًا فضحكت إليه ، ولا أراني أدرك بعد ذلك فرضًا ، فماتت قبل أن يدخل وقت الصلاة [١] .

ولما دخل سيدنا الحسن البصري علي ابنة منيبة البصرية ، وكانت شابة عابدة هي وأمها ، وقد حضرها الموت ، نظرت إليه وبكت ، فقال الحسن : ما يبكيك يا حبيبتي ؟ فقالت : يا أبا سعيد التراب يحثى على شبابي ولم أشبع من طاعة ربي [٢] .

هكذا كانوا يحبون الطاعة ويحرصون عليها ؛ فللَّه درهن من صالحات !

ثامنًا : محبة المسلمة الصالحة لربها :

وهذه الصفة كان يجب أن أستفتح بها الحديث حول عقيدة المسلمة الصالحة وعبادتها ، ولكني رأيت أن يكون ما سبق تشويقًا للوصول إليها ، فما سبق إلا أعمال دافعها المحبة ، وصفات باعثها حب اللَّه ﷻ في نفوس هؤلاء الصالحات ؛ فقد تدفقت قلوبهن بالحب فظهر فيهن التوكل علي اللَّه وحسن الثقة فيه واستحضار عظمته في كل لحظة ، ولانت جوارحهنَّ في طاعة اللَّه ﷻ فصار اللسان يخاطب المولى ﷻ بلغة المحبين ؛ كما سمعنا من فاطمة بنت

(١) صفة الصفوة - (٢٣، ٢٤) « بتصرف » .
(٢) السابق - (٤/ ٢٧) .

المنكدر- رحمها الله - وهي تقول في هدأة الليل : وقد خلا كل حبيب بحبيبه ، وخلوتي بك أيها المحبوب أن تعتقني من النار .

وصارت العين تنهمر كلما سمعت ذكر الله ﷺ أو تذكرت لقاءه والمثول بين يديه - وقد مر بنا الحديث عن بكائهن لذلك - .

وصارت الجوارح لا تطاوعها في غير طاعة الله ﷻ والسعي في مرضاته مهما كانت الظروف والأحوال .

وانظر وتأمل في هذه القصة التي أوردها الأستاذ عبد الله عفيفي في كتابه « **المرأة العربية في ظلال الإسلام** » لكي تدري كيف يفعل حب الله وحب رسوله وحب الإسلام بالقلوب والجوارح حينما يختلط بها .

يقول الأستاذ : في أصيل يوم من صيف سنة (١٩١٤م) كنت واقفًا في محطة طنطا أترقب القطار القادم من الإسكندرية لأتخذه إلى القاهرة ، وإذا بفتاة في السابعة عشرة من سنها يقودها إلى موقف القطار شرطي عات شديدٌ وساعٍ من سعاة معتمدي الدول قوي عتيد ، ومن خلفها شيخ أوربي قد جاوز الستين مكتئبٌ مهزول ، وهي تدافع الرجلين حولها بيدين لا حول لهما .

أقبل القطار ثم أخذ الأستاذ عبد الله مقعده بجوار الفتاة ومن معها ؛ ثم أقبل على الشيخ الأوربي يسأله : ما خطبه ؟

وما أمر الفتاة ؟ فرد الرجل بصوت يقطعه الأسى ، وقد أشرقه الدمع : إنني رجل إسباني وتلك ابنتي عرض لها منذ حين ما لم أعلمه ، فصحوت ذات صباح على صوتها تصلي صلاة المرأة المسلمة ، ومنذ ذلك اليوم احتجزت ثيابها لتتولى أمر غسلها ، وأرسلت خمارها الأبيض على صفحتي وجهها ، ومكشوف صدرها ، ثم أخذت تنفد وقتها في صلاة وصيام ، وسجود وهجود ، وكانت تدعى « روز » فأبت إلَّا أن تُسَمَّى « فاطمة » ، وما لبثت أن تبعتها أختها الصغرى فصارت أشبه بها من القطرة بالقطرة والزهرة بالزهرة ؛ ففزعت لهول ذلك الأمر ، وقصدت أحد أساقفتنا ، فأخذ يعاني رياضتها فلم يجد إلَّا إباءً وامتناعًا ، وعزَّت على الرجل خيبته فكتب إلى معتمد الدولة الإسبانية بأمر الفتاة الخارجة عن دينها ، وهنالك أمر المعتمد حكومة مصر فساقت إليه الفتاة كما ترى رغمًا عنها ورغمًا عني ليقذف بها بين جوانب دير تسترد فيه دينها القديم .

على إثر ذلك انثنيت إلى الفتاة وهي تعالج من أهوال الحزن وأثقاله ما تخشع الراسيات دون احتماله ، فقلت : ما بالك يا فاطمة ؟ - وكأنها أنست مني ما لم تأنسه ممن حولها - فأجابتني بصوت يتعثر من الضنى : لنا جيرة مسلمون أغدو إليهم فأستمع أمر دينهم ، حتى إذا أخذني النوم ذات ليلة رأيت النبي محمدًا ﷺ في هالة من النور يخطف سناها الأبصار ، يقول وهو يلوح إلي بيده :

« **اقتربي يا فاطمة** » ، فلم تكد تستتم جملتها حتى أخذتها رجفة فهوت على مقعدها كأنها بناء منقض ! وأبصرت بشيخ يتمشى في ردهة القطار فطلبت إليه أن يؤذن في أذنها ، فلما انتهى إلى قوله : « **أشهد أن محمدًا رسول الله** » تنفست الصعداء ، وأمعنت في البكاء ، وعاودتها سيرتها الأولى ، فلما أفاقت قلت لها : وم تخافين وتفزعين ؟ قالت : إنه سيؤمر بي إلى دير .. حيث ينهلون السياط من دمي ، ولست من ذلك أخاف ؛ إلّا أن أخوف ما أخاف يومئذ أن يحال بيني وبين صلاتي ونسكي ! قلت لها : يا فاطمة أَوَلَا أدلُّك على خير من ذلك ؟ قالت : أجل . قلت : إن حكم الإسلام على القلوب ، فما عليك لو أقررت بين يدي المعتمد بدينك القديم ، وأودعت الإسلام بين شغاف قلبك حتى لا يفوتك أن تقيمي شعائره حيث تشائين ؟ هنالك نظرت إليّ نظرة تضاءلت دونها حتى خفيت على نفسي ، ثم قالت : « دون ذلك حز الأعناق وتفصيل المفاصل ! دعني ، فإنني إن أطعت نفسي عصاني لساني » ، ولم يفلح ما توسلت به إليها أنا وأبوها ومن حولها [١] .

ولا يطاوعني قلمي أن أعلق على موقف هذه الفتاة المسلمة ذات السابعة عشرة من عمرها ، وثباتها ،

---

(١) المرأة العربية في ظلال الإسلام للأستاذ/ عبد الله عفيفي - (ص٨-١٠) « بتصرف واختصار » - طبعة أولى - دار الكاتب العربي - سنة (١٩٩٢م) .

وشجاعتها ، وتمسكها بدينها ، وحبها الإيماني المتغلغل في حنايا جوارحها لدرجة أن هذه الجوارح لا تطاوعها بشيء خارج عن هذا الحب ، ففضلت الأخذ بالعزيمة على الرخصة سوى أن أقول : كأني بالسيدة سمية بنت خياط (أم عمار) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تؤكد أنها مازالت تحيا بيننا في كل عصر في صورة هذه الفتاة وأمثالها .

وأختم الحديث حول محبة المسلمة الصالحة لربها ، وصدقها في هذه المحبة بما قالته جارية عبد اللّه بن الحسن العنبري قاضي البصرة حين التمسها بالليل فوجدها ساجدة تقول : بحبك لي اغفر لي ، فقال لها : يا جارية لا تقولي بحبك لي وقولي : بحبي لك اغفر لي ، فقالت : يا بطّال حبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام فأيقظ عيني وأنام عينك ، فقال : اذهبي أنت حرة لوجه اللّه ، فقالت : يا مولاي أسأت إليّ كان لي أجران فصار لي أجر واحد [1] .

ولا نتعجب مما قالته الجارية ، فإنها عبَّرت تعبيرًا بليغًا عن قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، فما أحبوه إلا حينما فتح لهم باب المحبة ، وباب محبته مفتوح دائمًا لكل من أراد ، ولكن لا يمكن الولوج فيه إلا عن طريق الكتاب والسنة .

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : إذا غُرست شجرة المحبة في القلب ، وسقيت بماء الإخلاص ، ومتابعة الحبيب ﷺ أثمرت

---

(١) صفة الصفوة - (٤/٤٦) .

أنواع الثمار ، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، أصلها ثابت في قرار القلب ، فرعها متصل بسدرة المنتهى [١] .

قال صالح المري بين يدي السيدة رابعة رضي الله عنها : من أكثر قرع الباب يفتح له ، فقالت : الباب مفتوح ، ولكن الشأن فيمن يرغب أن يدخله [٢] .

وهنا يطرأ على الذهن سؤالان أختم بهما الحديث عن عقيدة المرأة الصالحة وعبادتها ، وهما :

١ - هل خرج هؤلاء النسوة المتعبدات عن الكتاب والسنة ؟

٢ - هل قطعتهن العبادة عن الدنيا انقطاعًا كاملًا ؟

وأجيب على السؤال الأول فأقول :

كلا ، كلا ؛ لم يخرجن ألبتة عن الكتاب والسنة ، بل وردت عن بعضهن كلمات وعبارات تدل على مدى التزامهن بكتاب اللَّه ﷻ وسنة نبيه ﷺ ، وتبين أنهما طريق الوصول إلى اللَّه ﷻ ولا ثالث لهما ، من هذه العبارات :

تقول العابدة مؤمنة بنت بهلول ، وقد سئلت : من أين استفدت هذه الأحوال ؟ فقالت : من اتباع أمر اللَّه على سنة رسول اللَّه ﷺ ، وتعظيم حقوق المسلمين ، والقيام بخدمة الأبرار الصالحين [٣] .

(١) مدارج السالكين - ٩/٣ - طبعة الحلبي - د.ت .

(٢) ذكر النسوة المتعبدات لأبي عبد الرحمن السلمي - (ص٣١) - مرجع سابق .

(٣) ذكر النسوة المتعبدات لأبي عبد الرحمن السلمي - (ص٣٤) - مرجع سابق .

وجاءت امرأة إلى أم عليّ امرأة أحمد بن خضرويه البلخي فقالت لها أم عليّ : ما حاجتك ؟ قالت : جئت لأتقرب إلى الله بخدمتك ، فقالت لها : ولم لا تتقربين إليّ بخدمة ربك ؟ [١] .

وحُكي عن فخرويه بنت عليّ النيسابورية أنها قالت : من جعل السبب إلى الوصول إلى ربه غير ملازمة طاعته ، واتباع رسوله ﷺ فقد أخطأ السبيل إليه [٢] .

وقالت فاطمة بنت أحمد : لا أحد أظهر حمقًا ممن يوالي عدوه ويعادي وليه ؛ والنفس والشيطان عدوان ونحن نواليهما ونطيعهما ، والكتاب والسنة مواضع نجاتنا وخلاصنا وقد أعرضنا عنهما [٣] .

أما ما قد يشاع عن بعضهن من أمثال السيدة رابعة العدوية ، فهذا مما لا يجب أن يسلم به ، ولا أن يقطع بصحته لمجرد النسبة ، وهذه العابدة بالذات وثقها الإمام الذهبي في السير ، وتوقف في شأنها الإمام ابن كثير في البداية والنهاية ، وناهيك بهما من إمامين جليلين .

قال الإمام الذهبي رحمه الله حكاية عن أبي سعيد الأعرابي : أما رابعة فقد حمل الناس عنها حكمًا كثيرة ، وحكى عنها

(١) ذكر النسوة المتعبدات - (ص٧٧) .

(٢) السابق - (ص٨١) .

(٣) ذكر النسوة المتعبدات - (ص٨٢) .

سفيان وشعبة وغيرهما ما يدل على بطلان ما قيل عنها .

وقد تمثلت بهذا البيت :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي
وأبحت جسمي من أراد جلوسي [(١)]

فنسبها بعضهم إلى الحلول بنصف البيت ، وإلي الإباحية بتمامه ؛ قلت (الذهبي) : فهذا غلو وجهل ، ولعل من نسبها إلى ذلك إباحي حلولي ليحتج بها على كفره كاحتجاجهم بخبر كنت سمعه الذي يسمع به [(٢)] .

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ : وأثنى عليها أكثر الناس ، وتكلم فيها أبو داود السجستاني ، واتهمها بالزندقة ؛ فلعله بلغه عنها أمر .. وقد ذكروا لها أحوالًا وأعمالًا صالحة ، وصيام نهار وقيام ليل ، ورؤيت لها منامات صالحة ، فاللَّه أعلم [(٣)] .

وأجيب على السؤال الثاني وهو : هل قطعتهن العبادة عن الدنيا انقطاعًا كاملًا ؟ فأقول :

---

(١) يمكن حمل البيت - إن صحت نسبته إليها - على معان كثيرة بعيدة عن الحلول والإباحية ، أقربها إلى الذهن أن قلبها مشغول بذكر اللَّه وجسدها وجوارحها في محادثة المخلوقين والجلوس معهم ، واللَّه أعلم .

(٢) سير أعلام النبلاء - (٢١٦/٨) .

(٣) البداية والنهاية للإمام ابن كثير - (١٩٠/١٠،١٩١) ، بتصرف ، - طبعة النور الإسلامية - بيروت - د.ت .

كلا أيضًا ، فقد رأينا من هؤلاء النسوة من كانت تعمل برعي الغنم ، ومنهُّن من كانت مكفوفة البصر وتعمل بمغزلها ، وهذه زجلة العابدة كانت تخرج فتغسل ثياب المرابطين بالثغور [١] .

وهؤلاء العابدات في بيت المقدس يحملن مغازل الصوف في المسجد الأقصى .

عن أبي جعفر السائح قال : رأيت عجوزًا في بيت المقدس تقول : حججت ماشية اثنتي عشرة حجة ما ركبت فيها ، أشتري كل سنة بأربعة دراهم سقطًا فيكون ذلك زادي في ذهابي ومنصرفي ، قال : فقلت لها : في بيت المقدس مثلك من المتعبدات ؟ قال : فذكرت نسوة يفعلن مثل ما تفعل ؛ قالت : فإذا رجعنا حملنا مغازلنا إلى المسجد فلا نخرج منه إلا لحدث أو لحاجة [٢] .

فضلًا عن أن هؤلاء العبادات كان لهن أزواج وأولاد يقمن على شئونهن ، بل وينفعن مجتمعهُّن ويتصدقن ويشاركن في الحياة الاجتماعية - كما سيأتي بالأمثلة والنماذج في الفصول القادمة بمشيئة اللّٰه تعالى - .

* * *

---

(١) صفة الصفوة - (٤١/٤) .

(٢) السابق - (٢٥١/٤) .

الفَصْلُ الثَّاني

هكذا كانت أخلاقها وفضائلها

هكذا كانت أخلاقها وفضائلها

الإسلام دين الأخلاق الفاضلة ، والقيم النبيلة ؛ يربي أتباعه على الالتزام بكل خلق محمود ، وسلوك طيب ؛ وينهاهم عن كل خُلق مذموم ، وفعل قبيح ؛ هذا هدف أسمى من أهداف الإسلام في هذه الحياة ؛ يوضح ذلك النبي ﷺ في حديثه قائلًا : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » (١) .

ودلت على ذلك عقيدة الإسلام ، وشعائره ، وعباداته المختلفة من أول العقيدة التي يعتقدها المسلم في قلبه إلى السنن والنوافل التي يؤديها في حياته .

يقول الشيخ الغزالي رحمه الله : « إن الإيمان القوي يلد الخُلق القوي حتمًا ؛ وإن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان ؛ أو فقدانه بحسب تفاقم الشر أو تفاهته » (٢) .

وضح ذلك النبي ﷺ في أحاديث كثيرة ، منها :

قوله ﷺ : « **الحياء والإيمان قرناء ، فإذا رُفِع أحدهما رُفِع الآخر** » (٣) .

---

(١) أخرجه البيهقي بهذا اللفظ في السنن الكبرى - (٩١/٨) - باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها ؛ وأخرجه مالك في الموطأ بلفظ « حسن الأخلاق » - (٩٠٤/٢) - طبعة الحلبي - د.ت ، وقال ابن عبد البر : هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره .

(٢) خلق المسلم - (ص١٠) - ط/ دار الكتب الإسلامية - د.ت .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : حديث صحيح على شرطهما =

وقوله ﷺ : **« والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن »** قيل : من يا رسول الله ؟ قال : **« الذي لا يأمن جاره بوائقه »** (١) .

والعبادات في الإسلام ليست طقوسًا مبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة ، ويكلفه بأداء أعمال غامضة ، وحركات لا معنى لها ؛ كلا ، كلا ؛ فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاقٍ صحيحةٍ ، وأن يظل مستمسكًا بهذه الأخلاق مهما تغيرت الظروف ؛ إنها أشبه بالتمارين الرياضية التي يقبل الإنسان عليها بشغف ، ملتمسًا من المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة (٢) .

ومن ثم فقد ذكرت عند النبي ﷺ امرأة بكثرة صلاتها وصيامها وصدقتها ، إلاّ أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال : **« هيَ في النار »** ؛ وذكرت عنده امرأة أخرى بقلة صلاتها وصيامها وصدقتها ، إلاّ أنها تتصدق بالأثوار من الأقط (قطع الجبن) ، فقال : **« هي في الجنة »** (٣) .

= ولم يخرجاه بهذا اللفظ - كتاب الإيمان - (١/٧٣) .

(١) متفق عليه « صحيح البخاري » واللفظ له » - كتاب الأدب - باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ؛ وصحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان تحريم أذى الجار .

(٢) خلق المسلم - (ص٧) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه - (٤/١٨٣) ، وقال الهيثمي : رواه أحمد والبزار ورجاله =

فحينما فقدت العبادات تأثيرها الخلقي في نفس صاحبتها ضاعت كثرتها ، وذهبت قيمتها ؛ وعندما بدا أثر العبادات الخلقي في نفس صاحبتها بارك اللّٰه في القليل منها ، وتقبله من صاحبته ، وكفى بهذا منزلة للأخلاق الفاضلة في الإسلام .

وقد أعطى النبي ﷺ القدوة من نفسه على التخلق بالأخلاق الفاضلة ، والصفات المحمودة ، حتى استحق أن يمدحه ربه [redacted] بهذا في القرآن الكريم قال - جل في علاه - : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

واقتدى الصحابة ﷺ وسلفنا الصالح بالنبي ﷺ في هذا الجانب ، فكانوا أئمة الهدى في الخلق الفاضل ، والسلوك النبيل ؛ وقد اعترف بذلك العدو قبل الصديق .

يقول الإمام مالك رحمه الله « بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون : واللّٰه لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا » (١) .

وقد قدمت المرأة المسلمة الصالحة أروع الأمثلة في جانب الخلق الفاضل ، حتى صارت أخلاقها وفضائلها موضع إعجاب ، ومثار إكبار وإجلال على مر التاريخ والأزمان ، فسجل التاريخ لها مواقفها المشهودة التى تدل على حسن خلقها ، ونبل سلوكها .

= ثقات - مجمع الزوائد - (١٦٩/٨) .

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير - (٢٠٦/٤) - طبعة ثانية - دار الحديث - سنة (١٩٩٠م) .

وحسبنا أن نقف عند بعض الصفات الخلقية التي أُثِرَتْ عنها ، نتعلم منها الدرس والعبرة ، مع إقرارنا بالعجز عن استقصاء كل جوانب الأخلاق التي تميزت بها .

أولًا : خلق الصبر :

قد يظن البعض أن نصيب المرأة من هذا الخلق الكريم أقلُّ بكثير من نصيب الرجل ، نظرًا لما حبا اللَّه ﷻ المرأة من عاطفةٍ متدفقةٍ ، ومشاعر مرهفة ؛ ولكن هذا قد يصدق على من لم يخالط الإيمان بشاشة قلبها ، ويختلط بلحمها وعظمها ، فعندئذ نجد أن المرأة تنافس الرجل في هذا الخلق ، بل وربما تتفوق عليه بإيمانها وتسليمها للَّه ﷻ فيما يقع عليها من مصائب وابتلاءات ، لعلمها أن اللَّه - جل علاه - لا يريد إلَّا الخير بالناس ، وأن البلاء يحمل في طياته نعمًا كثيرة ، فهو رفع للدرجات ، وتكفير للسيئات ، والصبر عليه يوصل صاحبه إلى الجنة .

يقول تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥- ١٥٧] .

ويقول ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

ويقول ﷺ : « **من يرد اللَّه به خيرًا يصب منه** » (١) .

---

(١) صحيح البخاري - كتاب المرضى - باب ما جاء في كفارة المرض .

عندما أيقنت المرأة الملتزمة بإسلامها ، المتسلحة بإيمانها بهذه الآيات والأحاديث ، أعطت من صبرها وتجلدها عند المصائب والنوائب أعظم الأمثلة ، وخير القدوة لمن جاء بعدها .

وهاك النماذج على ذلك ، وهي قليل من كثير :

١ - صبر أم على وفاة ولدها البار بها :

كان للسيدة حفصة بنت سيرين - رحمها الله - ولد هو بها بار ، وكان من بره بأمه ما يأتي :

عن هشام بن حسان قال : كان الهذيل بن حفصة بنت سيرين يجمع الحطب في الصيف فيقشره ، ويأخذ القصب فيفلقه ؛ قالت حفصة : وكنت أجد قِرَّة [1] ؛ فكان إذا جاء الشتاء ، جاء بالكانون فيضعه خلفي ، وأنا في مصلاي ، ثم يقعد فيوقد بذلك الحطب المقشر ، وذاك القصب المفلق وقودًا لا يؤذي دخانه ويدفئني ، يمكث بذلك ما شاء الله ، قالت : وعنده من يكفيه (أي من الجواري والغلمان) لو أراد ذلك ؛ قالت : وربما أردت أن أنصرف إليه فأقول له : يا بني ارجع إلى أهلك ؛ ثم أذكر ما يريد (أي من الثواب) فأدعه .

قال هشام : وكانت له لِقْحة (الناقة الحلوب) ؛ قالت حفصة : كان يبعث إلي بحلبة بالغداةِ (الصبح) فأقول : يا بني إنك تعلم أني لا أشربه ، إني صائمةٌ ؛ فيقول : يا أم الهذيل إن أطيب اللبن ما بات في ضروع الإبل ، اسقيه

---

(١) قرة : البرد الشديد .

من شئت [١] .

وقد مات هذا الولد البار في حياة السيدة حفصة - رحمها الله - فقالت : فلما مات رزق الله عليه من الصبر ما شاء أن يرزق ، غير أني كنت أجد غصةً لا تذهب ، قالت : فبينما أنا ذات ليلةٍ أقرأ سورة النحل ، إذ أتيت على هذه الآية : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٥، ٩٦] ؛ قالت فأعدتها « فأذهب الله ما كنت أجد [٢] .

٢ - صبر أم يموت ابنها بين يديها :

أصيبت منفوسة بنت زيد الفوارس - رحمها الله - بابن لها وهو في حجرها ، فنظرت إليه وقد فاضت روحه إلى بارئها ، وقالت : والله لتقدمك أمامي أحب إليَّ من تأخرك ورائي ، ولصبري عنك أجدى من جزعي عليك ، وما حظ مصيبة تحل من التلف محلك ، وتورث من العطب مثل مضجعك ، ولئن كان فراقك حسرةً ، إن توقع أجرك لخيرة [٣] .

وهي بذلك تضرب مثلًا عاليًا عند نزول المصيبة بها اتباعًا لحديث رسول الله ﷺ : « إنما الصبر عند الصدمة

(١) صفة الصفوة - (٤/٢٦،٢٥) « بتصرف » .
(٢) صفة الصفوة - (٤/٢٥) . (٣) السابق - ٤/٣٨٧ .

الأولى » (١) ، ومعنى كلامها : أن موت ولدها ، واحتسابها ذلك عند اللَّه تعالى ابتغاء ثوابه ، أحب إليها من بقائه بعدها ، وليس ذلك لقلةِ مكانته عندها ، أو لضعف حبها له ، كلا ، إنما مصيبتها فيه أعظم مصيبة حلت بها ، إلا أن توقع الأجر والمثوبة من اللَّه تعالى ، هوّن عليها ذلك ، وخفف عنها حسرتها على فراقه . وهذا يدل على أن صبر هؤلاء النسوة الصالحات كان عن يقين على ثواب الصبر وحسن عاقبته ، لذا اخترنه على الجزع والضجر ، كما حدث مع امرأة صالحة أخرى مات ولدها بين يديها فقالت مثلما قالت هذه المرأة . فأجابها أعرابي : إنا لم نزل نسمع أن الجزع إنما هو للنساء ، فلا يجزعن رجل بمصيبةٍ بعدك ، ولقد كرُم صبرك ، وما أشبهت النساء ؛ فأقبلت عليه بوجهها ثم قالت : ما ميز رجل بين الصبر والجزع إلا أصاب بينهما منهجين بعيدي التفاوت في حاليهما ، أما الصبر فحَسَنُ العلانية محمود العاقبة ، وأما الجزع فغير معوّض مع مأثمه ؛ ولو كانا رجلين في صورة ، كان الصبر أولاهما بالغلبة وحسن الصورة مع كرم الطبيعة في عاجله من الدين وآجله من الثواب ، وكفى ما وعد اللَّه ﷻ فيه لمن ألهمه إياه (٢) .

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الجنائز - باب زيارة القبور ؛ وصحيح مسلم « بنحوه » - كتاب الجنائز - باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى .

(٢) صفة الصفوة - (٣٩٦/٤) .

٣ - فرح أم باستشهاد زوجها وابنها :

كان سيدنا صلة بن أشيم ﷺ - زوج السيدة معاذة بنت عبد اللَّه العدوية - في معركة ومعه ابن له ، فقال لابنه : أي بني تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل الولد فقاتل حتى استشهد ، ثم تقدم هو فقاتل حتى استشهد ، فاجتمعت النساء عند امرأته (معاذة العدوية) فقالت لهن : إن كنتن جئتن لتهنئنني فمرحبًا بكُنَّ ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن [١] .

إنها وزوجها على شاكلة واحدة من الصبر ، وانظر إليه في قوله لولده : حتى أحتسبك ، أى أحتسبك عند اللَّه شهيدًا وأصبر على فقدك ، ثم انظر إلى قولها بعد ذلك للنسوة ؛ حتى تعلم أنهم كانوا في منزلةٍ واحدةٍ من الصبر والرضا .

٤ - صبر المرأة الصالحة على مرضها :

أقعدت أم الأسود بنت يزيد مِنْ رجليها ، فجزعت ابنة لها ؛ فقالت أم الأسود : اللهم إن كان خيرًا فزد [٢] .

وهذا لا يحمل على تمني البلاء الذي نهي عنه النبي ﷺ ، إنما يحمل على رضا المرأة بما أصابها ، وصبرها عليه ، وحسن توقعها الأجر من اللَّه ﷻ بدليل قولها : إن كان خيرًا ، ولولا جزع ابنتها أمامها ما قالت ذلك .

---

(١) صفة الصفوة - (٤/٢٣) . (٢) السابق - (٣/١٨٨) .

ويوضح ذلك ما قالته السيدة أم إبراهيم العابدة حين ضربتها دابة فكسرت رجلها ، فأتاها قوم يعزونها ؛ فقالت : لولا مصائب الدنيا وردنا الآخرة مفاليس [١] .

وكذلك ما حدث مع امرأة فتح الموصلي حين عثرت فسقط ظفر إبهامها فضحكت ؛ فقيل لها : يسقط إبهامك وتضحكين ؟ فقالت : إن حلاوة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه [٢] .

فهذه المسلمات الصالحات تفتح أمامنا طريق الصبر بحالهن ، وشدةِ مكابدتهن لمصائبهن ، واحتمال ما نزل بهن لا عن جمود في القلب ، أو تحجر في العين .. بل كن مفجوعات ببلائهن ، متلبسات بمشاعر الأسى والحزن ، إلاّ أن صبرهن فاق ما بهن من لوعةٍ وألم ؛ فاستطعن أن يقلْنَ قولًا كريمًا ، ويصبرْنَ صبرًا جميلًا لا جزع معه .

وهذا أعلى درجات الصبر الذي أمر اللَّه ﷻ نبيَّه ﷺ به حين قال : ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ [المعارج : ٥] .

فالإسلام لا ينهى عن الحزن أو الأسى كتلك الغصة التى كانت عند السيدة حفصة بنت سيرين – رحمها اللَّه – ، إنما ينهى عن أن ينطق اللسان بالسوء حال المصيبة ، أو تظهر النفس الجزع ساعتها ، فإذا استطاع الإنسان أن يمسك لسانه ، ويحبس نفسه عن الجزع ، فقد أحسن الصبر

---

(١) صفة الصفوة – ٣٨/٤ . (٢) السابق – ١٩١/٤ .

وأجاد الرضا ؛ وصدق النبي ﷺ حين قال : « **ومن يتصبر يصبره الله** » (١) .

ثانيًا : خلق الوفاء :

الوفاء من شيم النفوس الشريفة ، والأخلاق الكريمة ، والخلال الحميدة ؛ يَعظُم صاحبه في العيون ، وتصدق فيه خطرات الظنون (٢) .

وقد ضربت النساء الصالحات أروع الأمثلة في هذا الخلق الكريم الذي عز ملتزموه ، وقل متبعوه في هذا العصر حتى صار وفاؤهن مثار إعجاب وانبهار من القاصي والداني .

ولِمَ لا ؟ وهن ملتزمات بأدب القرآن الكريم ، متبعات لهدي النبي ﷺ ، مقتفيات لآثار من سبقهن من الصحابيات الجليلات ، حتى إنه يصدق فيهن قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

وقد ظهر هذا الوفاء في جانب الصالحات مع أزواجهن في حال حياتهم وبعد مماتهم ؛ كما ظهر أيضًا مع من بايعن

---

(١) صحيح البخاري – كتاب الزكاة – باب الاستعفاف في المسألة ، وصحيح مسلم – كتاب الزكاة – باب فضل التعفف والصبر .

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف للعلامة الأبشيهي – ص٢٠٦ – ط/ دار القلم ببيروت – لبنان – د.ت .

من الخلفاء والأمراء خاصة مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ الخليفة الراشد الرابع ، حتى ضرب بهن المثل في ذلك .. والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة ، منها ما يلي :

١ - صور من وفائهن لأزواجهن حال الحياة .

كانت المرأة الصالحة لا تفارق زوجها إن أصابته ضراء في ماله أو بدنه ، بل تظل تقاسمه الحياة في مرها كما قاسمته إياها في حلوها ؛ وهي ترى حب زوجها دينًا في عنقها لا تستطيع أن توفيه إياه مهما فعلت ، فهي تبذل ما في وسعها في التعبير عن هذا الشعور نحو زوجها .

يُحكَى أن أعرابيًا من بني عُذرة شكا إلى سيدنا معاوية ابن أبي سفيان ﷺ عامله مروان بن الحكم بالمدينة لرغبته في التفريق بينه وبين زوجته - على رغم منها - لفقر نزل به بعد عز ، ولرغبته في أن يتزوج منها لمكانها من الجمال ، فلما حضرت أمام معاوية ، قال لزوجها مازحًا : تخيرها بيننا [1] ، فقال الزوج في ثقة من زوجته : ذلك إليك يا أمير المؤمنين ، فتحول معاوية نحوها وقال لها : يا سعدى ، أينا أحب إليك أمير المؤمنين في عزه وشرفه وقصوره ، أم مروان بن الحكم في غضبه واعتدائه ، أم هذا الأعرابي في جوعه وأطماره (ثيابه البالية) ؟

---

(١) لا تحسبن أن سيدنا معاوية ﷺ طمع في جمال المرأة فأراد أن يخيرها ، حاشاه ذلك ، ولكنه أراد أن يختبر وفاءها لزوجها ، فكانت عند حسن ظنه بها .

فأشارت الجارية إلى ابن عمها الأعرابي وأنشدت تقول :

هذا وإن كـان في جـوع وأطمار
أعزٌّ عندى من أهلي ومن جاري
وصاحبِ التاج أو مروانَ عاملِهِ
وكلٍّ ذي درهـم منهم ودينار

ثم قالت : لست – والله يا أمير المؤمنين – لحدثان الدهر بخاذلته ، ولقد كانت لي معه عيشة راضية ، وأنا أحق مَنْ صبر معه على الضراء والسراء ، وعلى الشدةِ والرخاءِ ، وعلى العافيةِ والبلاءِ ، وعلى القسم الذي كتب الله لي معه ، فأعجب معاوية بعقلها وكمالها ومروءتها ، وأمر لها بعشرِ آلافِ درهم وألحقها بصدقاتِ بيت المسلمين [1] .

ومن أفضل صور وفاء الزوجة لزوجها في حال حياته ، ما وقع عام (٢٨٦هـ) ، إذ رفع ولي أمر الزوجة على زوج ابنته دعوى يطالبه بخمسمائة درهم قيمة صداق ابنته ، وفي المحكمة طلب القاضي الشهود ، فلما حضروا قال القاضي للمرأة : أسفري عن وجهك ليراك الشاهد ويشير إليك أنك صاحبة الحق ، فقال الزوج : والله لا يرى وجهها أجنبي ، أنا مقر بالدعوى بلا حاجة إلى شهود ، وقالت المرأة : صدق أبي ، ولكنني أُبرئ زوجي من صداقي الذي في رقبته

---

(١) المرأة في التصور الإسلامي للأستاذ/ عبد المتعال الجبري – (ص١١٦،١١٧) – طبعة سادسة – مكتبة وهبة – سنة (١٩٨٣م) .

في الدنيا والآخرة ؛ فقال القاضي : يكتب هذا في مكارم الأخلاق [١] .

ومما يستأنس به في هذا المقام من قبيل حديث النبي ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها » [٢] .
ما حدث في البلاد الغربية حين حاصر كزاد الثالث عاهل ألمانيا (دوق بافاريا) في قصره ، وانتصر عليه ، وأمر بقتله مع جميع رجاله ، فالتمست الدوقة ونساء قصرها أن يسمح لهن بالخروج من القصر إلى مكان أمين حاملات ما يستطعن حمله ، فأجابهن إلى ذلك ، فحملت كل منها زوجها على ظهرها وخرجت به ؛ فلما رأى الإمبراطور الألماني ذلك أعجب بوفائهن لأزواجهن وعفا عنهم جميعًا [٣] .

فانظري - أختاه - كيف كان وفاؤهن لأزواجهن في حال عسرهم وشدتهم ، وكيف ضحين بالمال والسعادة في سبيلهم ، ورضين بالتعب والصبر معهم على حالهم !

أين هذا ممن تسارع إلى فضيحة زوجها بمجرد أن يقل مصروف البيت ، أو تدور الأيام عليه فيتعسر بعد أن كان موسرًا ، وربما يصل الأمر إلى طلب الطلاق لأن الرزق ضاق !!

فلتتعظ المرأة بحال هؤلاء الصالحات ، ولتحسن عشرة

---

(١) السابق - (ص١١٨) .
(٢) أخرجه الترمذي في سننه - كتاب العلم - باب (١٩) ، وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وكذا ابن ماجه - كتاب الزهد - باب (١٥) .
(٣) المرأة في التصور الإسلامي - (ص١١٧) .

زوجها في حال يسره وعسره ، ولتعلم أن الله ﷻ يقول :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] .

ويقول : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥] .

والنبي ﷺ يقول : « **لن يغلب عسر يسرين** » (١) .

٢ – وفاء المرأة الصالحة لزوجها بعد موته :

على الرغم من أن الإسلام كره للمرأة أن تبقى بلا زوج حينما تخشى الفتنة ، وجدنا بعض النساء الصالحات يؤثرن ألا يتزوجن بعد أزواجهن وفاءً لعشرتهم معهن ، ولعظم مقامهم عندهن .

فمن ذلك السيدة نائلة بنت الفرافصة رضي الله عنها زوج سيدنا عثمان رضي الله عنه ، فقد رفضت الزواج بعده ، فلما خطبها سيدنا معاوية ردته ، وقالت : ما يعجبه مني ؟ قالوا : ثغرك ، فكسرت ثناياها وقالت : لا يراهم أحد بعد عثمان (٢) .

وما فعلته السيدة نائلة رضي الله عنها غير جائز شرعًا ، فإنه لا يجوز لمسلم أن يقدم على إتلاف عضو من نفسه مهما كانت الأسباب ، لذا يكفي أن نعتبر بوفائها لسيدنا عثمان ، وردها لخطبة سيدنا معاوية رضي الله عنه .

---

(١) أخرجه البخاري في ترجمة باب تفسير سورة « ألم نشرح » – كتاب التفسير .

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف – (ص٢١٢) ، مرجع سابق .

وهذه الرباب بنت امرئ القيس زوج سيدنا الحسين بن عليّ ﷺ وقد خطبت بعد عدتها من وفاة سيدنا الحسين فأبت أن تستبدل بالحسين ﷺ زوجًا ، وبرسول الله ﷺ صهرًا ، وقالت : ما كنت لأتخذ حمًا بعد رسول الله ﷺ وأنشدت :

والله لا أبتغي صهرًا بصهركم
حتى أُغيَّب بين الرمل والطين [1]

ولم يكن الوفاء مقصورًا على أمثال هؤلاء السيدات ، بل كان عند من لم يعرفها التاريخ ، ولم يعرف مَنْ زوجُها .

يقول رجل من بني أسد : أضللت إبلًا لي فخرجت في طلبهن فهبطت واديًا ، وإذا أنا بفتاة أعشى نور وجهها بصري ، فقالت لي : يا فتى ما لي أراك مُولهًا (ساهي القلب ذاهل العقل) ، فقلت : أضللت إبلًا لي فأنا في طلبها ، فقالت : أفأدلك على من هي عنده وإن شاء أعطاكها ؟ قلت : نعم ، ولك أفضلهن ؛ قالت : الذي أعطاكهن أخذها ، وإن شاء ردهن ، فسله عن طريق اليقين لا من طريق الاختبار ، فأعجبني ما رأيت من جمالها وحسن كمالها ، فقلت : ألك بعل ؟ قالت : قد كان ، ودُعي فأجاب ، فأعيد إلى ما خلق منه ، قلت : فما بالك في بعل تُؤمن بوائقه (شروره) ، ولا تُذم خلائقه ؟ فرفعت رأسها وتنفست وقالت :

(١) تراجم سيدات بيت النبوة للدكتورة/ عائشة عبد الرحمن - (ص٨٤٠) - طبعة أولى - دار الريان للتراث - سنة (١٩٨٨م) .

كنا كغصنين في أصلٍ غذاؤُهما
ماءُ الجداول في روضات جنات
فاجتُثَّ خيرُهما من جنب صاحبه
دهرٌ يكر بترهات وفرحات
وكان عاهدني إن خانني زمن
ألا يضاجع أنثى بعد مثواتي
وكنت عاهدته إن خانه زمن
ألا أبوء ببعل طول محياتي
فلم نزل هكذا والوصل شيمتنا
حتى تُوفِّي قريبًا مذ سُنيات
فاقبض عنانك عمن ليس يردعه
عن الوفاء خلافٌ بالتحيات (١)

ومع حسن وفائهن لعهدهن مع أزواجهن ، لعل بعضهن كان لهن أولاد حبسن أنفسهن عليهم حتى يفزن بحديث النبي ﷺ : « **أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة** ، [وأومأ (الراوي) بالوسطى والسبابة] **امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا** » (٢) .

---

(١) الأنابيش للأستاذ/ عبد الرحمن الضبع - (٦٢/١، ٦٣) - طبعة أولى - مكتبة الإيمان - سنة (١٩٩٦م) .

(٢) سبق تخريجه .

٣ - وفاء المرأة الصالحة لبيعتها ورأيها :

علمنا الإسلام - كما سبق أن ذكرت - أنْ نفي لمن سبقنا إلى اللّٰه ﷻ، وأن نشعر بفضلهم علينا، وأن نذكرهم بالخير في دعائنا وكلامنا، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

فما بالك، لو كان من سبقك إلى اللّٰه ﷺ قد أعطيته صفقة يمينك، وبايعته على النصرة، ووقفت منه موقف التأييد؛ إن الوفاء له حقٌّ، والذبُّ عنه بعدَ رحيله صدقٌ في الطاعة والحب .

وهذا مزلق تنزلق فيه أقدام بعض الرجال حين تتغير الولاة، ويُسوّد رجل ويمضي آخر، فيهيلون على السابق التراب، وينسبون كل فضل لمن في سدة الحكم وعلى كرسي الرئاسة .

ولكن المرأة الصالحة أعطت هؤلاء المنافقين من نفسها وخلقها درسًا بليغًا في الوفاء الحسن للسابقين، وذكر الحق ونسبته لأهله، حتى صارت مثار إعجاب من سيدنا معاوية ﷺ فقال كلمته المشهورة «واللّٰه لوفاؤكم له بعد موته أحب إليّ من حبكم له في حياته» [1]، وذلك في حب النساء من شيعة سيدنا عليٍّ بن أبي طالب ﷺ له،

(١) المرأة العربية في ظلال الإسلام للأستاذ/ عبد اللّٰه عفيفي - (ص١٦٨) .

حين كن يدخلن على سيدنا معاوية ﷺ في خلافته ، وبين شيعته ، فينطقن بكلمة الحق أمامه ، ويعلنّ عن دوام حُبهنَّ لسيدنا عليٍّ ﷺ حتى بعد موته .

ولا يحسبن أحد أن سيدنا معاوية ﷺ كان يغضب لذلك ، أو أنه كان يريد أن يسمع عن سيدنا عليٍّ ﷺ شرًّا ، كلا كلا ، فقد كان في قلبه نحوه أكثر مما في قلب هؤلاء النسوة ، بدليل أنه ما ذكر أمامه إلا بكى وترحم عليه ، وقال : « رحم اللّٰه أبا الحسن ، لقد كان كذلك وأكثر » وإنما أراد سيدنا معاوية ﷺ أن يختبر صدق هؤلاء النسوة في حُبهنَّ لسيدنا عليٍّ ﷺ ووفائهن له ؛ ولقد كان يسر ويفرح بذلك ، ويأمر لهن بعطاء جزيل .

وإليك مثالًا من مواقف هؤلاء النسوة مع سيدنا معاوية ﷺ :

سهر معاوية ليلةً ، فذكر الزرقاء بنت عدي بن غالب ابن قيس - امرأة كانت من أهل الكوفة ، وكانت ممن نعيْنَ عليًّا ﷺ يوم صفين - فقال لأصحابه : أيكم يحفظ كلام الزرقاء ؟ فقال القوم : كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين ، قال : فما تشيرون عليَّ فيها ؟ قالوا : نشير عليك بقتلها ، قال : بئس ما أشرتم عليَّ به ! أيحسن بمثلي أن يتحدث الناس أني قتلت امرأة بعد ما ملكت وصار الأمر لي ؟ ثم دعا كاتبه فكتب إلى عامله في الكوفة أَنْ أوفِدْ إليَّ الزرقاء بنت عدي في ثقة من محارمها ، وعدة من فرسان

قومها ، ومهد لها وِطاءً لينًا ، واسترها بستر حصيف .. فلما قدمت على معاوية قال لها : مرحبًا وأهلًا خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك يا خالة ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت : خير مسير ، كأني كنت ربيبةً بيتٍ ، أو طفلًا ممهدًا ؛ قال بذلك أمرتهم ، فهل تعلمين لِمَ بعثت إليك ؟ قالت : سبحان اللَّه ! أنّى لي بعلم ما لم أعلم ؟ وهل يعلم ما في القلوب إلا اللَّه ؟ قال : بعثت إليكِ أن أسألك : ألستِ راكبةَ الجمل الأحمر يوم صفين بين الصفين ، توقدين الحرب وتحضين على القتال ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، إنه قد مات الرأس وبتر الذنب ، والدهر ذو غِيَر ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر ؛ قال لها : صدقت ، فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ قالت : ما أحفظه ، قال : ولكنّي واللَّه أحفظه ! للَّه أبوك لقد سمعتك تقولين : (وذكر كلامها يومئذ كما قالته) ، ثم قال معاوية : واللَّه يا زرقاء لقد شركت عليًا - كرّم اللَّه وجهه - في كل دم سفكه ، فقالت : أحسن اللَّه بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك ، مثلك من بشر بخير ، وسر جليسه ، قال لها : وقد سرك ذلك ؟ قالت : نعم لقد سرني قولك فأنى بتصديق الفعل ؟ قال معاوية : واللَّه لوفاؤكم له بعد موته أحب إليّ من حبكم له في حياته ، اذكري حاجتك ؛ قالت : يا أمير المؤمنين ، إني قد آليت على نفسي ألا أسأل أميرًا أُعنت عليه ، شيئًا أبدًا ، ومثلك أعطى عن غير مسألةٍ ،

وجاد عن غير طلب » قال : صدقتِ ؛ فأقطعها ضيعة أغلّتها في أول سنة عشرة آلاف درهم وأحسن وِفادتها » وردها والذين معها مكرمين (١) .

ثالثًا : خلق الورع :

الورع خلق قلبي » يحمل صاحبه على ترك الشبهات ، والاكتفاء بالحلال الخالص ابتغاء السلامة في الدين » والصيانة في العرض » مصداقًا لحديث النبي ﷺ : « **الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور مُشتبِهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ....** » الحديثَ (٢) .

وقد يتصور المرء أن الورع يكون في الرجال أكثر من النساء لكثرةِ مخالطة الرجال لأمور الكسب والمعيشة ، غير أن المرأة الصالحة قد تخلقت بهذا الخلق حين حضّت زوجها وأباها على كسب الحلال ، وحين اكتفت بالحلال الخالص عما فيه شبهة » وفي هذين الجانبين كان ورعها مضرب المثل، ومثار الفخر .

ففي الجانب الأول نسمع الإمام ابن الجوزى رحمه الله يذكر

---

(١) المرأة العربية في ظلال الإسلام - (ص١٦٧ ، ١٦٨) » بتصرف واختصار » .

(٢) متفق عليه ، صحيح البخاري » واللفظ له » - كتاب الإيمان - باب فضل من استبرأ لدينه ، وصحيح مسلم - كتاب المساقاة والمزارعة - باب أخذ الحلال وترك الشبهات .

لنا خبر بنات صغيرات يقلن لأبيهن : يا أبه لا تطعمنا إلا الحلال ، فإنَّ الصبر على الجوع أيسر من الصبر على النار (١) .

وفي الجانب الثاني نذكر أمثلة عديدة ، منها :

١ - ورع أخت بشر بن الحارث :

جاءت زبدة بنت الحارث إلى الإمام أحمد بن حنبل تسأله وتقول : إنا نغزل على سطوحنا فتمر المشاعل (مشاعل بني طاهر ولاة بغداد) فيقع الشعاع علينا ، فهل لنا أن نغزل في شعاعها ؟ فقال الإمام أحمد : من أنتِ ؟ قالت : زبدة أخت بشر بن الحارث ، فبكى حتى أبكى من حوله ، وقال : من بيتكم خرج الورع .. لا تغزلي في شعاعها (٢) .

ووردت هذه القصة بوجه آخر ، قيل : سألته : أغزل بالليل في السراج ، فربما طفئ السراج ، فأغزل في القمر ، فعلي أن أبين غزل القمر من غزل السراج ؟ فقال لها : إن كان عندك بينهما فرق فعليك أن تبيني ذلك (٣) .

ولذا قال الإمام أحمد عن حال هذا البيت : من أحب أن يعرف بُعده عن سبل الورعين فليدخل على أختَيْ بشر بن

(١) صفة الصفوة - (٤/٤٤٣) .
(٢) زبدة بنت الحارث للأستاذ/ محمد علي قطب - (ص٥٦) - ط/ دار الأنصار - سنة (١٩٧٨م) .
(٣) صفة الصفوة - (٢/٥٢٥) .

الحارث ، ويسمع من مسائلهما ، ويبصر طريقهما [١] .

٢ – ورع ميمونة بنت الأقرع – رحمها الله – :

وكانت تغزل الصوف ، فأرادت أن تبيع غزلها ، فقالت لغلامها : إذا بعت هذا الغزل فقل : إنِّي ربما كنت صائمة فأرخي يدى فيه ، ثم ذهبت ورجعت فقالت : رد عليَّ الغزل . أخاف أن لا تبين هذا لمن تبيعه ! [٢] .

٣ – ورع معاذة بنت عبد الله العدوية :

كانت السيدة معاذة العدوية أرضعت أم الأسود بنت زيد العدوية ، فقالت لها : لا تفسدي رضاعي بأكل الحرام ، فإني جهدت جهدي حين أرضعتك ألا آكل إلا حلالًا ، فاجتهدي بعد ذلك ألا تأكلي إلا حلالًا ، لعلك توفقينَ لخدمة سيدك ، والرضا بقضائه .

وكانت أم الأسود تقول : ما أكلت شبهة إلا فاتتني فريضة أو وِرْد من أورادي [٣] .

٤ – ورع امرأة عابدة :

عن العباس بن سهم أن امرأة من الصالحات أتاها نعي زوجها وهي تعجن ، فرفعت يدها من العجين وقالت : هذا طعام قد صار لنا فيه شركاء (الورثة) .

---

(١) ذكر النسوة المتعبدات لأبي عبد الرحمن السلمي – (ص٨٨) .
(٢) www.islamona-info.

(٣) ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات – (ص٧٥) .

ويروى عن امرأة صالحة أخرى أتاها نعي زوجها والسراج يقد ، فأطفأت السراج وقالت : هذا زيت قد صار لنا فيه شريك [١] .

أي ورع هذا ؟!!

وكأني بهؤلاء الصالحات قد طمعن في درجةِ المتقين ، فبذلن مهرها وهو الورع ، تصديقًا بحديث رسول الله ﷺ : **« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس »** [٢] .

ولم تكتف المرأة الصالحة بهذا الورع العملي ، بل دعت إلى الورع بقولها وحكمتها ؛ فمن ذلك قول فاطمة امرأة أبي علي الروذباري : « لا ينتفع العبد بشيء من أفعاله كما ينتفع بطلب قوته من حلال » [٣] .

فقدمت المرأة الصالحة الورع في صورته العملية والنظرية ، وبقي علينا نحن الرجال والنساء أن نتمثل حياتهنَّ ، ونقتدي بورعهنَّ ، فنكتفي بالحلال الطيب عن الشبهات وندع الأشياء المختلف فيها ابتغاءَ رضوان الله تعالى .

---

(١) صفة الصفوة - (٤/٤٣٩/٤٤٠) .

(٢) سنن الترمذي - كتاب صفة القيامة - باب (١٩) ، وقال : حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ؛ وأخرجه ابن ماجه - كتاب الزهد - باب الورع والتقوى .

(٣) ذكر النسوة المتعبدات - (ص٨٦) .

رابعًا : القناعة :

المرأة بطبيعتها تحب الزينة ، والتمتع بطيبات الحياة الدنيا ، ولكنها حين تفهم دينها حق الفهم ، وتعلم أن ما أعد الله ﷻ للصالحات المحسنات في الجنة من نعيم خيرٌ من نعيم الدنيا بأكملها تقنع بما آتاها الله ﷻ في هذه الحياة ابتغاءَ نيل ما عند الله ﷻ .

وهي بهذا تقتدي بأمهات المؤمنين ﵅ حين خيَّرهنَّ الله ﷻ بين ما عنده في الآخرة مع القناعة بعيش رسول الله ﷺ في الدنيا وما فيه من شدةٍ وشظف ، وبين التمتع بطيبات الحياة الدنيا ، ويصبح أمرهن إلى الله ﷻ بعد ذلك ، فآثرنَ جميعًا ما عند الله ﷻ في الآخرة مع التزام القناعة في الدنيا ، وقلن جميعًا - كما قالت السيدة عائشة ﵂ : « فإنِّي أريد الله ورسوله والدار الآخرة » (١) .

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨، ٢٩] .

وقد وعت المرأة الصالحة من سلفنا الصالح هذا الحديث

(١) متفق عليه ؛ صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأحزاب : ٢٨] ؛ وصحيح مسلم - كتاب الرضاع - باب بيان أن تخييره امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنيَّة .

الذي دار بين النبي ﷺ وبين زوجاته رضي الله عنهنَّ ، فقنعت بمعيشتها ، ولم تتطلع إلى ما في أيدي الآخرين من نِعَم ، إيمانًا منها بأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقَى ، وأنَّ الدنيا متاعُها قليلٌ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧] .

عن القاسم بن معبد أنه أتته امرأة فقالت : أنا امرأة فلان ، ما أتيتك حتى خفت أن يضيق علي أن لا آتيك ، فقال القاسم لبعض أصحابه : بقي من ذلك المال شيء ؟ قال : مائتا درهم ، قال : ادفعه إليها ، فأخذتْهُ وانصرفت ، وقال القاسم له : إذا جاءني شيء فأذكرنيها ؛ قال : فجاءه مالٌ ففرقه فذكرها ، وقد بقي منه سبعمائة درهم ، فقال : اذهب به إليها وسل عنها أهل المسجد الذي خلف منزلها ، والمسجد الذي دونه ففعل ، فأخبر بعفافٍ عنها وعن بنات لها ؛ قال : فأتيتها ، فقلت : رسول القاسم بن معبد ، فقالت : مرحبًا بالقاسم ورسوله ، حاجتك ؟ قلت : هذه السبعمائة درهم أرسل بها إليك القاسم ، فقالت : أقرئه السلام ، وقل له : قد أخذنا تلك المائتين فنحن نغزل منهما ونبيع ، وقد عشنا بهما واستغنينا فلا حاجَةَ لنا في هذه ، فأتيت القاسم فأخبرته ، فقال : ويحك ألا تركتها في باب الدار - وأشار بيده هكذا - ثم حول وجهه إلى القبلة وقال : اللهم إن بلوتني بخلف فاجعله هكذا (١) .

---

(١) صفة الصفوة - (٤/٤٣٦ ، ٤٣٧) .

فهذه المرأة الصالحة قَدمت لنا عدة دروس في موقف واحد ، فهي لم تسأل إلاّ عن حاجةٍ شديدةٍ ، ولم تلح في المسألة ، وقد فهم القاسم مسألتها بمجرد أن حدثته ، ثم أخذت صدقته ، فلم تركن إلى التسول وإنما أقامت عملاً لها ولبناتها تصون به عرضَهُنَّ ، وتحفظ به حَياءهنَّ حتى اشتهرت في حيِّها بأنها وبناتها من العفيفات ، فتمنى القاسم أن يرى عَقِبه مثل هذه المرأة وبناتها .

وقد غلب على المرأة الصالحة هذا الخلق الكريم حينما ملكت نفسها ، وتحكمت في شهوتها ، فلم يصبح للهوى عليها سبيل ، بل جعلت نفسها وشهوتها وهواها طوعَ أمر اللَّه ﷻ .

تقول السيدة أم طلحة - رحمها اللَّه - : « ما ملكت نفسي ما تشتهي منذ جعل اللَّه لي عليها سلطانًا » ، وكانت تقول : « النفس مَلِكٌ إن اتبعْتَها ، ومملوك إن أتْعَبْتَها » [١] .

نعم ؛ فالنفسُ تكونُ أمارةً بالسوءِ ، فيروضها صاحبها حتى تصبح نفسًا لوامةً ، ثم يرتقي بها حتى تصبح نفسًا مطمئنةً ، وعند ذلك يقنع برزقه من المال ، ومن الجاه ، ومن الولد ، ومن البيت ، لأنه مطمئنٌّ أن ذلك كله من اللَّه ﷻ .

ورحم اللَّه شقيق البلخي حين قال : « عَلِمتُ أنَّ رزقي لا يأكله غيري فاطمأنتْ به نفسي » [٢] .

---

(١) السابق - (٣٧/٤) .

(٢) حلية الأولياء للأصبهاني - (٨ ، ٧٣) - الطبعة الرابعة - =

وهذه القناعة تُكسِبُ صاحبها وصاحبتها عزًّا ما بعده عز .

واسمع إلى شيخ الإسلام ابن عطاء الله السكندري وهو يقول : « ما بسقت أغصان ذل إلَّا على بذور طمع » (١) .

وقد علمت إحدى النساء الصالحات هذا المعنى لأبي محرز الطفاوي حين شكا لها ضيق المكسب فقالت له : يا بني استغن بعز القناعة عن ذل المطالب ، فكثيرًا والله ما رأيت القليل عاد سليمًا ؛ قال أبو محرز : مازلت بعد أعرف بركة كلامها في قنوعي (٢) .

خامسًا : الكرم والجود :

من الفضائل الإنسانية التي فطر الله ﷻ بعض النفوس عليها ، وحبب فيها الإسلام ، ورغب في التزامها فضيلة الكرم والجود ؛ فالله ﷻ هو أكرم الأكرمين ، قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق: ٣] ؛ والنبي ﷺ كان أجود بالخير من الريح المرسلة (٣) ، وكان يقول : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه** » (٤) .

= دار الكتاب العربي - بيروت - سنة (١٤٠٥هـ) .

(١) شرح الحكم لابن عباد - (٤٧/١) - ط/ الحلبي - سنة (١٩٣٩م) .

(٢) صفة الصفوة - (٤٨/٤) .

(٣) صحيح البخاري - كتاب الفضائل - باب صفة النبي ﷺ ، وصحيح مسلم « بنحوه » - كتاب الفضائل - باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير .

(٤) أخرجه مسلم « واللفظ له » - كتاب الإيمان - باب الحث على إكرام =

والعرب من صفاتها الطيبة ، وأخلاقها النبيلة ، أنها كانت تُحِبُّ الكرم والجود ، وتفتخر به على الرغم مما كان بهم من جهدٍ ومشقةٍ في العيش ، حتى قال قائلهم :

ونُكــرم جــارنا مــادام فيــنا
ونُتبعه الكــرامة حيـث مالا

وجاءهم الإسلام فزادهم كرمًا على كرمهم حيث ثبت عقيدتهم على أن الرزّاق - جل علاه - قد تكفل برزق عباده منذ الأزل ، وأن الفضل بيد اللَّه يؤتيه من يشاء ، وهو خير الرازقين ؛ حتى قال أحد سلفنا الصالح : منع الموجود سوء ظن بالمعبود ، لأنه القائل : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] .

لذا كانوا يجودون بما في أيديهم ، ولو لم يكن عندهم غيره ، كما وصف اللَّه ﷻ الأنصار بذلك فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

وقد حذت النساء الصالحات من سلفِ الأمة حذو الأنصار في ذلك ، فجُدْنَ بما في أيديهن ولو لم يكن

= الجار والضيف ، وأخرجه البخاري « بنحوه » - كتاب الأدب - باب « من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره » .

عندهن غيره ثقة في اللّه ﷻ ، وابتغاء ثوابه ؛ فكافأهن اللّه بالكرمِ كرمًا ، وبالجودِ جودًا .

مرَّ أسيادنا الحسن والحسين وعبد اللّه بن جعفر ﷺ بخباء أم حبيب الأعرابية على الطريق بين مكة والمدينة ، وكانوا جوعى وعطشى ، قد بلغ الجوع والعطش بهم مبلغًا عظيمًا ، فقالوا لها : هل عندك من لبن تسقينا ؟ فإنا ظماء ، قالت أم حبيب : دونكم هذه الشويهة فاحلبوها واشربوا لبنها ، فحلبوا وشربوا ، ثم قال أحدهم : فهل عندك من طعام ؟ فإنَّا جياعٌ ، قالت : ما عندى إلَّا هذه الشويهة فليذبحها أحدكم حتى أجمع لكم حطبًا ، ثم أهيئ لكم ما تأكلون ، فقام إليها أحدهم فذبحها وكشطها ، ثم هيأت لهم الطعام فأكلوا حتى شبعوا ، فأقاموا عندها ساعة حتى أبردوا ، وحين هموا بالرحيل قالوا لها : نحن نفر من قريش نريد الحج فإذا رجعنا سالمين فألمِي بنا فإنَّا صانعون إليك خيرًا إن شاء اللّه ، ثم ارتحلوا يتحدث بعضهم إلى بعض عن كرمِ أم حبيب وسخاءِ أم حبيب .

فلما عاد زوجها أبو عامر نظر في الخباء ، ثم سأل عن الشاة ؛ فقالت أم حبيب : مر بي نفر من قريش ، وكانوا ظماء ، وكانوا جِياعًا ، فسقيتهم لبنها وأطعمتهم لحمها ، ما كنت أقدر على غير هذا ، فغضب أبو عامر وقال : ويلك أمَّ حبيب ، ما رأيت كاليوم حمقًا وسفهًا ، تذبحين شاتي وهي معتمدنا بعد اللّه في الحياة لقوم لا نعرفهم ؟! تقولين نفر من

قريش ، ومن يدري ؟ لعلهم أن يكونوا من أوشاب العرب ، وأخلاط الناس ، خدعوك حتى ظفروا منك بما لم يكونوا ليظفروا به إلا من سفيه ؛ قالت أم حبيب : أَمَا إنهم لَمِنَ السادة في قريش حقًّا ، ما في هذا ريب ، وقد رأيت فيهم سيما السيادة وأثر النعمة ، ولو رأيتهم وما كانوا عليه من ظمأ وجوع وإعياء ، لما ترددت في أن تصنع بهم ما صنعت .

ثم تغير الحال بأم حبيب وزوجها ، فتركا مكانهما في الصحراء ، وجعلا يبحثان عن القوت والرزق حتى نزلوا المدينة . فكان سيدنا الحسن ﷺ واقفًا على باب داره ذات يوم ، فرأى أم حبيب مجهدةً متعبةً قد بلغ بها الجهد والجوع مبلغًا ، فعرفها ، فتقدم إليها وقال لها : يا أمة اللّه أتعرفينني ؟ قالت : لا ، وما أحسبني رأيتك من قبل ، فعرفها بنفسه وقال : أنا ضيفك بالأمس ، قالت ومتى كنت ضيفي بالأمس ؟ قال : يوم كذا وكذا أتذكرين ذلك ؟ قالت : أذكر ذلك وما نسيت ، بأبي أنت وأمي يا ابن الأكرمين ، ويا حفيد الرسول الأمين ، ثم قال لها : وما الذي أصارك إلى ما أرى ؟ قالت : صرت إلى ما ترى منذ فارقتني أنت وصاحباك يوم كذا وكذا الذي ذكرت آنفًا ، قال الحسن : لا تُراعي لا تراعي يا أماه . ثم أمر غلامه فأدخلها داره ، وقال لأهله : استوصوا بها خيرًا ، فإن لها في أعناقنا صنيعًا ، وقد أقامت عنده هي وزوجها ما شاءا أن يقيما ، حتى إذا قضيا حق الضيافة اشترى لها مائة شاة ، وأمر لها بألفِ دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى

أخيه الحسين ثاني نفر ، فوصلها بمثل ما وصلها به الحسن ، ثم بعث بها الحسين مع غلامه إلى ثالث نفر - عبد اللَّه بن جعفر ابن أبي طالب - ﷺ ، فقال لها عبد اللَّه : بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت : بمائتي شاة وألفي دينار ، قال عبد اللَّه : لو بدأت بي لأتعبتهما في العطاء ، أعطوها عطيتهما .. وهكذا رجعت العجوز ومعها أربعمائة شاة وأربعة آلاف دينار جزاء صنيعها ، وجزاء إيثارها (١) .

ولا يعجب الإنسان من كرم هذه المرأة حين صنعت ما صنعت بأضيافها ، إنما يعجب بها أكثر وأكثر حين لم تسألهم عن أسمائهم ، ولم تتعرف عليهم .

وهذا هو الجود الحقيقي الذي انطبعت عليه هذه النفوس الكريمة ، فبذلته لمن تعرف أو لا تعرف .

وهذه امرأة كريمة أخرى على منوال التي سبقت ، تقف مثل هذا الموقف من سيدنا عبد اللَّه بن عباس ﷺ وذلك على النحو التالي :

كان سيدنا عبد اللَّه بن عباس منصرفًا من الشام إلى الحجاز ، فنزل منزلًا في الطريق ، وطلب من غلمانه طعامًا

---

(١) هذه القصة وردت بأصلها في المستطرف للأبشيهي - (ص١٧٤) ، ولكنها وردت كاملة بأكثر من هذا في : ٢٨٠ قصة وقصة من قصص الصالحين ونوادر الزاهدين للأستاذ/ مجدي الشهاوي - (ص١٦٧) وما بعدها - ط/ المكتبة التوفيقية - د.ت .

فلم يجدوا ، فقال لوكيله : اذهب في هذه البرية ؟ فلعلك تجد راعيًا أو حيًّا فيه لبن أو طعام ، فمضى بالغلمان ، فرأوا عجوزًا في حي ، فقالوا لها : أعندك طعام نبتاعه ؟ قالت : أما البيع فلا ، ولكن عندي مالي ولأبنائي به حاجة ، قالوا : فأين بنوك ؟ قالت : في رعي لهم ، وهذا أوان أوبتهم ، قالوا : فما أعددت لك ولهم ؟ قالت : خبزة ؛ قالوا : وما عندكِ غير هذا ؟ قالت : لا شيء ، قالوا : فجودي لنا بشطرها ، فقالت : أما الشطر فلا أجود به ، وأما الكل فخذوه ، فقالوا لها : تمنعين النصف وتجودين بالكل ، قالت : نعم ، فأنا أمنع ما يضعني وأمنح ما يرفعني ، فأخذوها ولم تسألهم من هم ، ولا من أين جاءوا .. فلما جاءوا إلى عبد اللّٰه وأخبروه بخبرها ، عجب من ذلك ، ثم قال لهم : احملوها إلي الساعة ، فرجعوا إليها ، وقالوا لها : انطلقي معنا إلى صاحبنا ، فإنه يريد أن يراك ؛ فقالت : ومن صاحبكم ؟ قالوا : عبد اللّٰه بن عباس ، قالت : وأبيكم هذا هو الشرف العالي وذروته الرفيعة ! وماذا تريدون مني ؟ قالوا : مكافأتكِ وبركِ ؛ فقالت : أوَّه ! واللّٰه لو كان ما فعلت معروفًا ما أخذت به بدلًا ، فكيف وهو شيء يجب على الخلق أن يشارك فيه بعضهم بعضًا ؟ فلم يزالوا بها حتى أخذوها إليه .. فلما وصلت إليه سلمت ، فرد عليها السلام ، وقرب مجلسها ثم قال لها : ممن أنتِ ؟ قالت : من بني كلب ؛ قال : فكيف حالك ؟ قالت : أسهر اليسير ،

وأهجعُ أكثر الليل ، وأرى قرة العين في بني ، فلم يك من الدنيا شيء إلا وجدته فيهم ، قال : فما ادخرت لبنيكِ إذا حضروا ؟ قالت : ادخرت لهم ما قاله حاتم الطائي :

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل

فازداد عبد الله منها تعجبًا ، ثم قال لها : لو جاء بنوكِ وهم جياعٌ ، فما كنت تصنعينَ ؟ قالت : يا هذا لقد عظمت عندكَ هذه الخبزة حتى أكثرت فيها مقالكَ ، وأشغلت بها بالكَ ، فاله عني هذا ، فإنه يفسد النفس فقال عبد الله : أحضروا إلي أولادها ، فأحضروهم ، فلما دنوا منه رأوا أمهم وسلموا ، فأدناهم إليه وقال : إني لم أطلبكم وأمكم لمكروه ، وإنما أُحِبُّ أن أصلح شأنكم ، وألم شعثكم ، فقالوا : إن هذا قَلَّ أن يكون إلا عن سؤال ، أو مكافأةٍ لفعلٍ قديم ؛ قال : ليس شيء من ذلك ، ولكن جاورتكم في هذه الليلة فأحببت أن أضع بعض مالي فيكم ، قالوا : يا هذا نحن في خفض عيش ، وكفاف من الرزق ، فوجهْهُ نحو من يستحقه ، وإن أردت النوال مبتدئًا من غير سؤال فتقدم ، فمعروُفَك مشكوّر ، وبركَ مقبولٌ ؛ فقال : نعم ، هو ذاك .. وأمر بعشرة آلاف درهم وعشرين ناقة ، فقالت العجوز لأولادها : ليقل كل واحد منكم شيئًا من الشعر ، وأنا أتبعكم في شيء منه ، فقال الأكبر :

شهدت عليك بطيب الكلام
وطيب الفعال وطيب الخبر

وقال الأوسط :

تبرعت بالجود قبل السؤال
فِعَالٌ عظيمٍ كريمِ الخطر

وقال الأصغر :

وحُق لمن كان ذا فعله
بأن يسترق رقاب البشر

وقالت العجوز :

فعمرك الله من ماجد
ووقيت كل الردى والغِيَر [١]

فلله درهن من كريماتٍ جيِّداتٍ .

وأختم الحديث عن هذه الفضيلة بما رواه ابن السماك في صفة الصفوة أن نفرًا وردوا على عجوز في بعض البوادي يسألونها بيع شاةٍ ؛ فقالت : ما كنت لأبيع ابن السبيل شيئًا ، ولكن خذوها على ما عند الله ﷺ .. ثم بكى ابن السماك وقال : رحمها الله فَقهتْ في بَدْوها [٢] .

---

(١) قصص التابعيات للدكتور/ مصطفى مراد – (ص٥٤ – ٥٦) – طبعة أولى – دار الفجر – سنة (٢٠٠٣م) .

(٢) صفة الصفوة – (٣٩٣/٤) .

سادسًا : التواضع :

كانت المسلماتُ الصالحاتُ تَكرهُ أن يُعرفَ عنهنَّ ما يتميزن به من خُلق ، وكنَّ ينظرن إلى أنفسهن على أنهَّن مقصّرات في جنب اللّه ، وأنهن من أقل الناس شأنًا عند اللّه ، وهذا هو التواضع الذي ينبغي أن يتحلى به المسلم والمسلمة مع إخوانه المسلمين ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

واستعمال حرف الجر (على) في قوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بدلًا من (اللام) للتفريق بين الذل الذي يقتضى الرحمة والعطف – وهو المراد هنا – وبين الذل بمعني الهوان والضيم – وهو ما يقتضيه حرف الجر (اللام) ، وهو ما لا يرضاه اللّه ﷻ لعبد من عباده ، ولا يجوز إلا في حق اللّه وحده لا شريك له (١) .

وهذا التواضع الذي كساهن اللّه ﷺ به هو سبب بقاء ذكرهن إلى يومنا هذا ، مصداقًا لحديث نبينا ﷺ : « **وما تواضع أحد للّه إلّا رفعه اللّه** » (٢) .

---

(١) أخلاق الدعاة إلى اللّه تعالى للدكتور/ طلعت عفيفي – (ص٧٦) – ط/ مكتبة الإيمان – د.ت .

(٢) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب استحباب العفو =

وهذه بعض الأمثلة والنماذج على تواضع من اشتهرن بالعبادة والصلاح والتقوى من الصالحات حتى صرن نماذج يقتدى بهن في ذلك :

عن إبراهيم بن أبي عبلة قال : قلت لأم الدرداء : ادعي لنا ؛ قالت : أو بلغت أنا ذلك ؟ (١) وهي التي قال عنها ميمون مهران - كما سبق أن ذكرت - ما دخلت عليها في ساعة صلاة إلا وجدتها مُصلِّية .

وحينما طلب رجل هذا الطلب من رابعة العدوية ، وقال لها : ادعي لي ؛ التصقت بالحائط وقالت : من أنا يرحمك اللّٰه ؟! ، أطعْ ربكَ وادعه فإنَّه يجيب المضطرين (٢) ؛ وهي التي أثر عنها القول المشهور : « أستغفر اللّٰه من قِلة صدقي في قولي ، أستغفر اللّٰه » (٣) .

وهذه شعوانة التي عرفت بكثرة بكائها - والتي ذكرت عنها ذلك من قبل - يدخل عليها مالك بن ضيغم فترحب به لمنزلة أبيه عندها ، ثم تقول له : أما واللّٰه يا بني إني لمشتاقة إلى أبيك ، وما يمنعني من إتيانه إلا أني أخاف أن أشغله عن

= والتواضع .

(١) صفة الصفوة - (٤/٢٩٦) ؛ وليس معنى ذلك أن الإنسان لا يدعو لأخيه ، بل ورد ما ينافي ذلك حين قال النبي ﷺ لسيدنا عمر ﷺ : « لا تنسنا من دعائك يا أخي » ، فيحمل هذا من الصالحات على شدة التواضع منهن .

(٢) السابق - (٤/٢٨) .

(٣) السابق - (٤/٢٨) ؛ وكذا ذكر النسوة المتعبدات - (ص٢٩) .

خدمة سيده ، وخدمة سيده أولى به من محادثة شعوانة ؛ ثم قالت : ومَن شعوانة ؟ وما شعوانة ؟ أمة سوداء عاصية [١] .

وهذه عائشة المروزية امرأة أحمد بن السري تقول : ما أكلت أكلة قط أتهنى بها إلا أكلة مع فقير ، أو في متابعة فقير ، أو في مشاهدته [٢] .

هكذا ينظرن إلى أنفسهن .. لا يدعين الوصول إلى اللّه [illegible] .. ولا يمتنونَ على الناس بعبادتهم .. وإنما كنَّ في غاية التواضع للّه ﷻ ، ولعباده المسلمين .

فأين نحن منهن ؟!! .. ومنا من لو قام ليلة لصحا من نومه يتهم الناس جميعًا بالتقصير ، ويظن نفسه أفضلهم !! .. ومنَّا مَنْ لو التزمت بدينها وحجابها لنظرت إلى العاصياتِ نظرة احتقار وازدراء !! .. ومنا من لو تعلمت بعض العلوم لأُعطت لنفسها حق الفتوى والتحليل والتحريم بين أخواتها !!

* * *

(١) السابق - (٥٤/٤) .

(٢) ذكر النسوة المتعبدات - (ص٩٠) .

هكذا طريق الصالحات

الفَصلُ الثَّالِثُ

هكذا كان علمها وحكمتها

هكذا كان علمها وحكمتها

الإسلام دين العلم ، تلك حقيقة لا شك فيها ، فالله ﷻ من أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا أنه هو العليم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ٨٣] .

ورسوله ﷺ مهمته الكبرى في هذه الحياة هي التربية والتعليم .

قال عز من قائل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

وقال ﷺ عن نفسه : « **إنما بُعثت معلمًا** » (١) .

ومعجزة الإسلام العظمى كتاب يقرأ ، وأول آيات نزلت منه تدعو إلى القراءة والكتابة والتعليم .

قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١، ٥] .

وتوالت آيات القرآن الكريم تدعو إلى العلم وتحث عليه ، حتى بلغت مادة (علم) بمشتقاتها في القرآن الكريم ما يزيد على ثمانمائة وخمسين مرة (٢) ؛ فضلًا عن الفكر والعقل

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه – المقدمة – ب/ فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٩/٤) ، (٨٣/١) ؛ والدارمي في سننه – المقدمة – ب/ في فضل العلم والعالم (٣٤٩/٤) ، (١١١/١) .

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – الأستاذ/ محمد فؤاد عبد الباقي – (ص٤٦٩ – ٤٨١) – طبعة دار الحديث – سنة (١٩٨٧م) .

واللُب ، والنعي على الجهل ، وهي كلها تصب في قالب العلم في نهايةِ الأمر .

والله ﷻ حين فضل الإنسان على ملائكته ، فضَّله بالعلم .

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢] .

بل قدَّم ﷻ العلم والتعلم على خلق الإنسان ، ليشير أنه لا قيمةَ لهذا المخلوق في الإسلام إلا بالعلم .

قال ﷻ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢] .

وقد جعل الإسلام العلم فرض عينٍ على الرجل والمرأة معًا ، ودعا المرأة أن تتعلم ما يناسب وظيفتها في الحياة كزوجة وأم ، وما تستطيع به أن تخدم بنات جنسها ، وتنفع مجتمعها وأمتها .

ومما يؤكد أن الإسلام يوجب تعليم المرأة كما يوجب تعليم الرجل ، ما ورد في السنة من أحاديث متعددة تحث على تعليم النساء ، حتى إن الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصص في صحيحه لهذه الأحاديث ثلاثة أبواب من كتاب العلم :

الباب الأول تحت عنوان (تعليم الرجل أمته وأهله) : وأورد تحته حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه : « **ثلاثة**

لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران » [١] .

والباب الثاني تحت عنوان (عظة الإمام النساء وتعليمهن) : وأورد فيه حديث رسول الله ﷺ حين خرج بعد صلاة العيد ، ومعه سيدنا بلال ، فظن أنه لم يُسْمِع فأتى النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة ، فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم ، وبلال يأخذ في طرف ثوبه [٢] .

والباب الثالث تحت عنوان (هل يجعل للنساء يومًا على حدة في العلم) : وجاء فيه بحديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو سعيد الخدري ، قالت النساء للنبي ﷺ : غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يومًا من نفسك ، فوعدهن يومًا لقيهن فيه فوعظهن فأمرهن ، فكان فيما قال لهن : **« ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابًا من النار »** ؛ فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال : **« واثنين »** [٣] .

وهذا الحديث الأخير [٤] فيه دلالةٌ واضحةٌ على الاهتمام

---

(١) صحيح البخاري – (٩٧/٦) ، (٤٨/١) .

(٢) صحيح البخاري – (ح/٩٨) ، (٤٩/١) .

(٣) صحيح البخاري – كتاب العلم – باب هل يجعل للنساء يومًا على حده – (ح/١١) ، (٥٠/١) .

(٤) هناك باب آخر أيضًا في كتاب العلم من صحيح البخاري فيه دلالة =

بتعليم النساء لدرجة تخصيص يوم بعينه لهن لا ينازعهن فيه الرجال ، وهذا أيضًا فيه تنبيه لنا على عدم الاختلاط في مقاعد العلم حتى ولو كانت في المساجد ، فما بالنا بغيرها ؟!

وقد استجابت المرأة الصالحة عبر العصور الإسلامية الزاهرة لدعوة الإسلام للعلم ، فشمرت عن ساعد الجد ، وأخذت في تلقي العلوم من منابعها الصافية ، حتى أحرزت قصب السبق في هذه العلوم ، وصارت موئلًا يفد إليه طلاب العلم من هنا وهناك ، ليأخذوا عنها ، ويتعلموا على يديها ؛ حتى إننا إذا أردنا أن نتتبع آثار هؤلاء الصالحات العالمات في علم واحد أعيانا حصرهن ، فما بالك بالعلوم كلها ؟!

ولا أعني بالعلوم هنا علوم الشريعة من حديث وتفسير وفقه وأصول فقط ، كلا ، إنما أعني جميع العلوم الشرعية والعملية ، خاصة علم الطب الذي تميزت فيه المرأة الصالحة تميزًا واضحًا حتى وصلت طبيبات منهن إلى ما لم يصل إليه الرجال من الخبرة والمهارة في هذا العلم .

وحتي يسهل علينا الحديث حول ما وصلت إليه المرأة المسلمة من تفوق ونبوغ في مجال العلم والحكمة ، فإنني أقسم هذا الفصل إلى النقاط الآتية :

أولًا : دور المرأة الصالحة في مجال العلوم الشرعية .

ثانيًا : دور المرأة الصالحة في مجال العلوم الأخرى .

= على تعليم النساء وهو باب الحياء في العلم .

ثالثًا : المرأة الصالحة تحث أبناءها على طلب العلم .

رابعًا : ما أثر عن المرأة الصالحة من الحكم .

وأبدأ في الحديث حول هذه النقاط على النحو التالي :

أولًا : دور المرأة الصالحة في مجال العلوم الشرعية :

تفوقت المرأة الصالحة في تحصيل علوم الشريعة الإسلامية ، وأظهرت من النبوغ والفهم ما استطاعت به أن تتبوأ به مكانةً عاليةً في هذه العلوم ، حتى تتلمذ على يديها أكابر العلماء والفقهاء من أمثال الإمام الشافعي ، والإمام الخطيب البغدادي ، والإمام ابن عساكر ، وغيرهم من الأئمة .

فهذا الإمام الحافظ ابن عساكر - المتوفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة - أوثق رواة الحديث عقدة ، وأصدقهم حديثًا ، حتى لقبوه بحافظ الأمة .. كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء [1] .

فهل سمع الناس في عصر من العصور ، وأمة من الأمم أن عالمًا واحدًا يتلقى عن بضع وثمانين امرأة علمًا واحدًا ؟!

فكم تُرى منهن من لم يلقها أو يأخذ عنها ، والرجل لم يجاوز الجزء الشرقي من الدولة الإسلامية ، فلم تطأ قدماه أرض مصر ، ولا بلاد المغرب ، ولا الأندلس ، وهي أحفل ما تكون بذوات العلم والرأي من النساء .

---

(١) طبقات الشافعية - للإمام السبكي - (٢٧٣/٤) .

وهذا إمام واحد في عصر واحد ، فما بالك ببقية العصور ؟!

لقد عقد الإمام محمد بن سعد – صاحب الطبقات الكبرى – جزءًا من كتابه لراويات الحديث من النساء أتى فيه على نيف وسبعمائة امرأة روين عن رسول الله ﷺ ، أو عن الثقات من أصحابه ، وروى عنهن أعلام الدين وأئمة المسلمين (١) .

وقد بلغ عدد المحدِّثات في القرن الثامن الهجري فقط ما يقرب من مائتين واثنتين وثلاثين امرأة ، ذكر كثيرًا منهن الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه النفيس (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) (٢) .

أما الإمام السخاوي – صاحب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع – فقد عقد للنساء البارزات في عصره جزءًا واحدًا وهو الجزء الأخير من الكتاب ، وقد بلغ عددهن ما يقرب من ألف وخمس وسبعين امرأة (٣) .

وليس ذلك فحسب .. بل لقد شهد لهؤلاء الصالحات من سلف الأمة كبار علمائها أمثال : الإمام الذهبي وغيره بأنهن التزمنَ الصدق في الرواية ، والأمانة في النقل .

---

(١) المرأة العربية في ظلال الإسلام – الأستاذ/ عبد الله عفيفي – (ص١٤٥) .
(٢) انظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – للإمام ابن حجر العسقلاني .
(٣) انظر : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع – للإمام السخاوى – (م٦) – (جـ١٢) – طبعة دار مكتبة الحياة – بيروت – د.ت .

حتى قال الإمام الذهبي في (ميزان الاعتدال) بعد أن نقد الرجال المحدثين ، وخرج منهم أربعة آلاف متهم : « وما علمت من النساء من اتُّهمت ولا من تركوها » [١] .

وهذه شهادة فخر ، ووسام شرف من إمامٍ حُجةٍ ، تبين ما وصلت إليه المرأة الصالحة في علم واحد من العلوم الشرعية وهو علم الحديث ، حيث تميزت المرأة الصالحة - حين تصدت لنقل الحديث - بأنها لم تتهم بالكذب أو التدليس أو الوضع كما اتُّهِم بعضُ الرجال ، ولم تترك روايتها لعلة قادحة في خلقها أو دينها أو سلوكها ، إنما كانت مثالًا للصدق والأمانة والعدل والديانة ، حتى تلقى العلماء روايتها بالقبول .

وقد عقد ابن عراق الكتاني فصلًا سرد فيه أسماء الوضاعين والكذابين ، فبلغوا المئات ، لم توجد فيهم امرأة واحدة [٢] .

ومما ورد في ثناء العلماء على هؤلاء الصالحات العالمات من بعد عصر الصحابة إلى أيامنا هذه :

ما روي عن إياس بن معاوية ﷺ قال : « ما أدركت أحدًا أفضله على حفصة بنت سيرين ، وقد قرأت القرآن

---

(١) انظر : ميزان الاعتدال - (٤٦٥/٧) - الطبعة الأولي - دار الكتب العلمية - بيروت - سنة (١٩٩٥م) .

(٢) www.bayynet.org.

الكريم وهي بنت ثنتي عشرة سنة ، وعاشت سبعين سنة » ؛ فذكروا له الحسن البصري ، وابن سيرين ، فقال : « أما أنا فما أفضل عليها أحدًا » (١) .

وعن هشام بن حسان أن ابن سيرين كان إذا أشكل عليه شيء في القراءة ، قال اذهبوا فسلوا حفصة كيف تقرأ (٢) .

وروى أيوب بن سويد عن يونس عن ابن شهاب عن القاسم بن محمد – أحد فقهاء المدينة السبعة – أنه قال لي : « يا غلام أراك تحرص على طلب العلم ، أفلا أدلك على وعائه ؟ قلت : بلى ؛ قال عليك بعَمْرة (أي عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة) فإنها كانت في حجر عائشة » ، قال ابن شهاب : « فأتيتها فوجدتها بحرًا لا ينزف » (٣) .

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عن الشيخة العالمة فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية : « كانت من العاملات الفاضلات ، وكانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. وقد سمعتُ الإمام ابن تيمية يثني عليها ، ويصفها بالفضيلة والعلم ، ويذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيرًا من (المغني) أو أكثره ، وأنه كان يستعد لها من كثرةِ مسائلها ، وحسن سؤالاتها ، وسرعة فهمها .

وهي التي ختمت نساء كثيرات القرآن الكريم ، منهن أم

(١) صفة الصفوة – (٢٦/٤) . (٢) السابق – (٢٥/٤) .
(٣) صلاح الأمة في علو الهمة – (١٧٧/٧) .

زوجتي عائشة بنت صديق ، وزوجة الشيخ جمال الدين المزي ، وهي التي أقرأت زوجتي أمة الرحيم زينب – رحمهُنّ اللّه – وقد توفيت يوم عرفة سنة ٧٧١هـ » [١] .

هذا .. وإذا أردت أن أصطفي بعض النماذج من النابغات في هذه العلوم ، فإنني أقف متحيرًا أمام هذه القِمم الشامِخة .. مَنْ أذكر منهن ومَنْ أدع ؟!

ولكن حسبي أن ذكر الواحدة منهن دليل عليهنَّ جميعًا ؛ ومن ثم سأكتفي بنموذجٍ واحد في علم الحديث ، وآخر في علم التفسير ، وثالث في علم الفقه ، ورابع من العالمات المعاصرات ، وذلك على النحو التالي :

١ – في علم الحديث – راوية صحيح البخاري ، وأستاذة الخطيب البغدادي – السيدة كريمة المروزية .

وهي كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزية المكية نسبةً إلى (مرو) وهي قرية من خراسان ، ونسبة إلى مكة لأنها جاورت بمكة [٢] .. وتكنى بـ (أم الكرام) .

رحلت في طلب العلم مع والدها ، وعاشت تحفظ وتروي وتعلم ، فروت صحيح البخاري ، وإليهَا انتهى علو إسناده ، وكانتْ تضبطُ كتابتها ، وتقابل نسخها ؛ وعرفت

---

(١) البداية والنهاية – (١٤/٧٤) .

(٢) هذا التعبير يراد به : من مكث في المسجد الحرام ، لا يخرج منه إلّا لحاجة ، وذلك للعبادة أو التعليم ، أو نحوهما .

نسختها من نسخ صحيح البخاري (بنسخة كريمة) .

جاورت بمكة [١] ، وأسمعت الطلاب كتاب الجامع الصحيح للإمام البخاري مرات من نسختها المروية عن أبي الهيثم الكشميهني .

وقد أبقى اللّه ﷻ لها بصرَها ، فكانت تردُّ على من يقرأ عليها بمجرد نظرها في كتابها ، وفي ذلك يقول الحافظ أبو الفضل بن ناصر : « ما رأيت امرأة عجوزًا تضبط بالنظر في كتابها ، وترد على من يقرأ عليها مثلها » .

وقد روى عنها ثمانية من أعلام علم الحديث ، على رأسهم الخطيب البغدادي ، وأبو المظفر منصور بن محمد السمعاني ، وأبو الحسن الموصلي ، وغيرهم .

■ **منزلة نسخة كريمة بين نسخ صحيح البخاري :**

نسخة كريمة إحدى النسخ المعتمدة لصحيح البخاري التي استند إليها الحافظ شرف الدين اليونيني في تدوين نسخته التي شاعت في البلاد ، وبقيت على مر العصور .

وتمتاز (نسخة كريمة) بأنها كانت شديدةَ القرب للإمام البخاري ، إذ سمعت من الإمام الكشميهني الذي سمع من الفربري وكان عند الفربري الأُصل الذي خلفه البخاري .

وحين اجتمع اليونيني وابن مالك بصحبة جماعة من

---

(١) هذا التعبير يراد به : من مكث في المسجد الحرام ، لا يخرج منه إلا لحاجة ، وذلك للعبادة أو التعليم ، أو نحوهما .

العلماء نظروا في النسخ المعتمدة ، فكلما مرَّ بهم لفظ « رفع الإشكال فيه (ابن مالك) وأوضح صوابه وضبطه على ما اقتضاه علمه بالعربية .

فلما انتهوا من العمل في المجلس الحادي والسبعين ، شهد اليونيني وابن مالك بخطهما على ما عملاه .

وكان من العمل الذي ارتضوه أن جعلوا لكل نسخةٍ أخذوا عنها رمزًا - وهو حرف مفرد من أحرف صاحبها - وكان رمز نسخةِ كريمةِ حرف (ك) .

وقد انفردت نسختها بأشياء تميزت بها عن جميع النسخ ، تراجع في شروح الصحيح ونُسخه [١] .

ومما لا شك فيه أن العالم الإسلامي مدين لهذه المرأة في حفظها لصحيح البخاري وروايتها له ؛ حيث أسدت للسنَّة عملًا عظيمًا ، وساهمت في نقل أصح الكتب بعد كتاب الله ﷻ إلى الأجيال جيلًا بعد جيل .

٢ - في علم التفسير : الأميرة المفسرة للقرآن الكريم .

هي زيب [٢] النساء الهندية ابنة الشاه محيي الدين أوزبك سلطان الهند « ولدت سنة ١٠٤٨هـ » وتوفيت

(١) انظر : طبقات النساء المحدثات - الأستاذ/ عبد العزيز سيد الأهل - (ص١٣٨ - ١٥٠) بتصرف واختصار - طبعة سنة (١٩٨١م) بدون ذكر المطبعة .

(٢) زيب : كلمة فارسية معناها زينة ، ومعنى تفسيرها « زين التفاسير » .

سنة ١١١٣هـ ، كانت حافظةً لكتاب الله ﷺ ومفسرة له ، وهي المرأة الوحيدة التي لها تفسير للقرآن الكريم ، ويسمى هذا التفسير (زيب التفاسير) .

قال الأستاذ / محمد خير يوسف : « في (معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر) لـ (عادل نويهض) - الذي ضمت محتوياته في مجلدين ضخمين - لم أر فيه سوى ذكر امرأة واحدة لها تفسير ، وهي : زيب النساء بنت الشاه محيي الدين أوزبك » [١] .

ومعلوم أن علم التفسير لا يتصدى له إلا من تمكن وتبحر في علوم اللغة والشريعة والفقه والأصول ، فانظري أختاه إلى أي مدى كان علم النساء منذ عهد ليس ببعيدٍ عنا .

٣ - في علم الفقه : بنت الفقيه وزوجة الفقيه فاطمة السمرقندية .

هي فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندي ، من العالمات الفقيهات المحدثات ، كان أبوها من كبار فقهاء عصره وصاحب مصنفات كثيرة منها (كتاب التحفة) ، ونشأت على حب العلم والفقه ، واهتم بها والدها اهتمامًا كبيرًا ، فأخذت العلم عنه وعن جملة من فقهاء عصرها ، واشتهرت بالجمال وحسن الخط ، وأخذ عنها كثيرون ،

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمة - الدكتور/ سيد العفاني - (٧/ ١٨٠ ، ١٨١) - طبعة ثانية - مؤسسة الرسالة - سنة (١٩٩٩م) .

وتصدرت للتدريس ، وألفت مؤلفاتٍ عديدة في الفقه والحديث ، وعاصرت الملك العادل نور الدين الشهيد - المتوفى سنة (٥٦٩هـ) - واستشارها في بعض أموره الداخلية ، وسألها بعض المسائل الفقهية ، وأنعم عليها .

زوجها أبوها من أبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي - صاحب كتاب (بدائع الصنائع) - ، وقصة زواجها منه أن جماعة من الملوك طلبوها من والدها - وقد كانت من حسان نساء عصرها - فامتنع والدها ؛ وجاء الكاساني ولزم والدها ، وتعلم على يديه حتى برع في علوم الأصول والفروع ، وصنف كتاب (البدائع) وهو (شرح التحفة) ، وعرضه على شيخه ، فازداد فرحًا به وزوجه ابنته ، وجعل مهرها منه ذلك ، فقال الفقهاء في عصره « شرح تحفته وزوجه ابنته » .

وقال ابن العديم : « حكى والدي : أنها كانت تنقل المذهب نقلًا جيدًا ، وكان زوجها الكاساني ربما يهم (من الوهم) في الفتيا فترده إلى الصواب ، وتعرفه وجه الخطأ فيرجع إلى قولها » وقال : « وكانت تفتي ، وكان زوجها يحترمها ويكرمها ، وكانت الفتوى أولًا تخرج بخطها وخط أبيها ، فلما تزوجت الكاساني - صاحب البدائع المتوفى سنة (٥٧٨هـ) - كانت الفتوى تخرج بخط الثلاثة » (١) .

---

(١) أعلام النساء - الأستاذ/ عمر رضا كحالة - (٩٤/٤ ، ٩٥) - طبعة رابعة - مؤسسة الرسالة - سنة (١٩٨٢م) .

وهذه الفقيهة العالمة ، تذكرنا بابنة الإمام مالك التي حفظت الموطأ عن أبيها ؛ وكان القارئ يقرأ على الإمام الموطأ فإذا أخطأ في حرف أو زاد أو نقص ، تدق الباب فيقول أبوها للقارئ : « ارجع فالغلط معك » فيرجع القارئ فيجد الغلط [1] .

وكذلك تذكرنا بابنة الإمام سعيد بن المسيب التي خطبها هشام بن عبد الملك بن مروان ، فأبى أبوها ، وزوجها من تلميذه ابن أبي وداعة ، فلما أصبح من ليلةِ عرسه ، أخذ رداءه يريد أن يخرج ، فقالت له زوجته : « إلى أين ؟ » ، فقال : « إلى مجلس سعيد أتعلم العلم » فقالت : « اجلس أعلمك علمَ سعيد » [2] .

فأين أمثال هؤلاء في نسائنا وبناتنا ؟! وأين هؤلاء الآباء العلماء الذين يقدمون للأمة أمثال هؤلاء البنات الفقيهات ؟!

٤ - من العالمات المعاصرات : الدكتورة/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) .

لم ينقطع الخير من هذه الأمة ، ولا من نسائها العالمات الفقيهات إلى زماننا هذا ، فهذه المرأة التي سنعرض لشيء من حياتها تعتبر ممن خدم العلم والفكر الإسلامي بحيث لا

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمة - (١٧٨/٧) ، نقلًا عن المدخل لابن الحاج - (٢١٥/١) .

(٢) السابق - (١٧٧/٧) .

يوجد عالم أو باحث في العلوم الشرعية من الخليج إلى المحيط لم يسمع بها ، ويعرف لها مكانتها وقدرها .

قال عنها من وصفها : « الدكتورة / عائشة عبد الرحمن نموذج للمرأة المسلمة الشيخة العالمة ، الواعية بهويتها الإسلامية ، المنفعلة بما يدور في العالم الإسلامي من حولها ، استشعرت عناء أمتها فلعبت دورًا في إحياء تراثها ، وبناء علومها ، وإعادة بناء وعيها ، والدفاع عن قضاياها » [١] .

ولدت الدكتورة/ عائشة في مدينة دمياط في (٦) من نوفمبر عام (١٩١٣م) ، ابنةً لعالم أزهري ، وحفيدة لأجداد من علماء الأزهر ، تعلمت وفقًا للتقاليد الصارمة لتعليم النساء وقتئذ في المنزل ، وفي مدارس القرآن الكريم (الكُتَّاب) ، ومن المنزل حصلت على شهادة الكفاءة للمعلمات عام (١٩٢٩م) بترتيب الأولى على القطر المصري كله ، ثم الشهادة الثانوية عام (١٩٣١م) ، والتحقت بجامعة القاهرة لتتخرج في كلية الآداب قسم اللغة العربية عام (١٩٣٩م) ، وقد تزوجت أستاذها بالجامعة الأستاذ/ أمين الخولي ، وأنجبت منه ثلاثة أبناء ، وهي تواصل مسيرتها العلمية ، ثم نالت درجة الماجستير بمرتبة الشرف الأولى عام (١٩٤١م) ، ثم رسالة الدكتوراه

(١) ملخص تقرير عن ندوة بنت الشاطئ « خطاب المرأة أم خطاب العصر » - إسلام أون لاين نت .

عام (١٩٥٠م) بامتياز بعد مناقشة عميد الأدب العربي الدكتور/ طه حسين لها .

لم تكن بنت الشاطئ كاتبةً ومفكرةً وأستاذةً وباحثةً فحسب ، بل نموذجًا نادرًا وفريدًا للمرأة المسلمة التي حررت نفسها بنفسها بالإسلام ، فمن طفلةٍ صغيرةٍ تلهو على شاطئ النيل في دمياط ، إلى أستاذ للتفسير والدراسات العليا في كلية الشريعة بجامعة القرويين في المغرب ، وأستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها في جامعة عين شمس بمصر ، وأستاذ زائر لجامعات أم درمان (١٩٦٧م) ، والخرطوم ، والجزائر (١٩٦٨م) ، وبيروت (١٩٧٢م) ، وجامعة الإمارات (١٩٨١م) ، وكلية التربية للبنات في الرياض (١٩٧٥م) ، (١٩٨٣م) ؛ وتدرجت في المناصب الأكاديمية إلى أن أصبحت أستاذًا للتفسير والدراسات العليا بكلية الشريعة بجامعة القرويين بالمغرب حيث قامت بالتدريس هناك ما يقارب العشرين عامًا .

وتركت بنت الشاطئ وراءها ما يربو على الأربعين كتابًا في الدراسات الفقهية والإسلامية والأدبية والتاريخية ، فلها مؤلفات في الدراسات القرآنية والإسلامية ، أبرزها : (التفسير البياني للقرآن الكريم) ، و(القرآن وقضايا الإنسان) ، و(تراجم سيدات بيت النبوة) .. وكذا تحقيق الكثير من النصوص والوثائق والمخطوطات ، ولها دراسات لغوية وأدبية وتاريخية ، أبرزها : (نص رسالة الغفران

للمعري) ، و(الخنساء الشاعرة العربية الأولى) ، و(مقدمة في المنهج) ، و(قيم جديدة للأدب العربي) .. ولها أعمال أدبية وروائية أشهرها : (على الجسر) وهو سيرة ذاتية ، وقد سجلت فيه طرفًا من سيرتها الذاتية ، وسطرته بعد وفاة زوجها أمين الخولي ، بأسلوبها الأدبي الراقي تتذكر فيه صباها ، وتسجل مشاعرها نحوه ، وتنعاه في كلماتٍ عذبةٍ .. كما شاركت في العديد من المؤتمرات الدولية في كل هذه المجالات ، وقد جاوزت شهرتها أقطار الوطن العربي والإسلامي ، وكانت كتاباتها موضوعًا لدراساتٍ غربيةٍ ورسائل جامعيةٍ في الغرب ، بل وفي أوزبكستان واليابان .

ولم تكتف بنت الشاطئ بالكتابة فحسب ، بل خاضت معارك فكريةٍ شهيرةٍ ، واتخذت مواقف حاسمة دفاعًا عن الإسلام ، فخلفت وراءها سجلًا مشرفًا من المساجلات الفكرية التي خاضتها بقوة ، وكان أبرزها معركتها ضد التفسير العصري للقرآن الكريم ذودًا عن التراث .. ودعمها لتعليم المرأة واحترامها بمنطق إسلامي وحجة فقهية أصولية دون طنطنة نسوية ، ومواجهتها الشهيرة للبهائية في أهم ما كتب في الموضوع من دراسات مسلطةً الضوء على علاقة البهائية بالصهيونية العالمية .. وكذا دراستها الرائدة عن تراجم سيدات بيت النبوة .. وأبحاثها حول الحديث النبوي :

تدوينه ، ومناهج دراسته ، ومصطلحاته ... إلخ [1] .

هذا طرف يسير من حياة هذه الشيخة العالمة - رحمها الله - وهو يعطينا ويعطي بناتنا وأخواتنا ونساءنا درسًا بليغًا في حرص المرأة على تلقي العلم مهما كانت الصعوبات التي تواجهها ، وأن المرأة تستطيع أن تجمع بين بناء الأسرة ورعاية الزوج والأولاد وبين العلم ومواصلة الدراسة ، بل والتفوق والتميز على الأقران أيضًا .. فقد كانت - رحمها الله - أمًّا لثلاثة أولاد قامت بتربيتهم وهي في مرحلة الدراسة الجامعية وفي مرحلتي الماجستير والدكتوراه .

كذلك مما يسترعي الانتباه في حياة بنت الشاطئ - رحمها الله - أنها جمعت بين النشأة الإسلامية وحب القرآن الكريم واللغة العربية ، وبين الانفتاح على المجتمع الحديث من خلال الجامعة ، ودراستها الأدبية ، فلم تفقدها الثانية تمسكها بقيمها الإسلامية الأصيلة التي تربت عليها .. تقول هي عن ذلك : « ولم يحدث قط أن فتنت عن قديمي بالجديد الذي تعلمته من كتب العلوم العصرية في مراحل الطريق إلى الجامعة ، بل كنت كلما تقدمت خطوة على الطريق ازددت إدراكًا لقيمة الرصيد الثمين الذي يمنحني

(١) إسلام أون لاين نت - باب مجاهيل ومشاهير ؛ وانظر : على الجسر بين الحياة والموت « سيرة ذاتية » - الدكتورة/ عائشة عبد الرحمن - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ؛ وبنت الشاطئ من قريب - الدكتور/ حسن جبر - طبعة دار الكتاب الحديث - القاهرة .

سمة أصالتي وتفردي بين بنات جيلي » [1] .

وهذه الكلمات أدفع بها في وجه بعض النساء المفتونات بكل جديد يأتي من الغرب في العلوم والقيم والعادات والتقاليد ، لكي يستيقظن من فتنتهن ، ويعدن إلى أصولهن الإسلامية التي تكرم الإنسان ، وتضمن له الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة .

ثانيًا : دور المرأة الصالحة في مجال العلوم الأخرى ،

لم تكتف المرأة الصالحة بدراسة العلوم الشرعية ، بل تعدتْها إلى دراسة العلوم الأخرى التي تتفق مع طبيعتها وتتناسب مع مهمتها ورسالتها في الحياة ، بحيث استطاعت أن تنفع نفسها وأمتها .

وقد برزت المرأة الصالحة في علم الطب بخاصة حتى كانت بغداد وقرطبة وما سواهما من مدن الحضارة الإسلامية تعج بالكثيرات منهن ممن عُرفن بالبراعة في علاج نوع من الأمراض ، وفي تطبيب عضو من أعضاء الجسد .

ومن هؤلاء : أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها ، فقد حدّث صاحب طبقات الأطباء عن نفاذهن في فروع الطب جميعًا ، وفي أمراض النساء خاصةً ، وكان المنصور ابن أبي عامر - وارث الخلافة الأموية بالأندلس - لا يدعو

---

(١) إخوان أون لاين نت - واحة المرأة - شخصيات نسائية .

لنسائه وعامة أهله غيرهما .

ومنهن : زينب طبيبة بني أور ، وكان أخص ما برعت فيه علاج العين بالجراحة ، أو إجراء العمليات الجراحية للعين [1] .

أما النموذج الذي سأقف عنده قليلًا من الطبيبات المسلمات المعاصرات ، فهو نموذج (أم الأطباء) الدكتورة/ زهيرة عابدين - رحمها الله - تلك المرأة التي استطاعت أن تقدم للعالم كله صورة الطبيبة المسلمة كما يريدها الإسلام ، حيث جمعت بين التمسك بدينها ، والتفوق في علمها ، وبين رعاية أسرتها وخدمة مجتمعها .. فاستحقت ما عرف عنها من فضل ونبل ، وما اشتهرت به من نبوغ وتميز .. وإليك طرفًا من مشوار حياتها حيث العظة والدرس .

ولدت الدكتورة/ زهيرة - رحمها الله - سنة ١٣٣٦هـ/١٩١٧م في أسرة محافظة ، كان أبوها حسين عابدين باشا عضوًا بمجلس الشيوخ (البرلمان) ، وكان يتمتع بحس إسلامي عميق ، لذا غرس فيها حب الدين من صغرها .

تقول هي عن نشأتها : « تعودت على صلاة الفجر يوميًا ، وكان عمري خمس سنوات ، وكنت أحفظ القرآن الكريم منذ طفولتي ، حتى إنني عندما التحقت بمدرسة تبشيرية اسمها (سان ماري) أدخلوني - في إحدى الحصص مع الأطفال - كنيسة المدرسة لتأدية طقوس الصلاة والاستماع

---

(١) المرأة العربية في ظلال الإسلام - (ص١٥٧) .

للتراتيل التي تتلوها الراهبات ، إلا أنني وجدت لساني قد انعقد عن النطق ، وقلبي انقبض بشدة ، وشعرت بكرهٍ شديد لهذه المدرسة ، وطلبت من والدي أن يلحقني بمدرسة أخرى ؛ لأنني لن أذهب لهذه المدرسة مرة أخرى ، واستجاب والدي لرغبتي ، وألحقني بمدرسة السنية رغم أنها بعيدة جدًّا عن منزلنا آنذاك » .

كما تذكر أنها حين لم تجد مكانًا للصلاة في مدرستها الجديدة لم تمنعها شجاعتها من طلب توفير مكان للصلاة ، واستجابت الناظرة ، وسمحت لزهيرة وزميلاتها بتنظيف إحدى الحجرات في جانب من فناء المدرسة ، واتضح أنه كان مسجدًا ولكنه أغلق ، وأعيد افتتاحه ، وأصبح المسجد شعلة نشاط من صلاة ، ودروس تحفيظ وتجويد القرآن الكريم ، وبدأت تدعو الضيوف من علماء الأزهر .

وتذكر عن مرحلتها الجامعية أنها كانت الطالبة المحجبة الوحيدة في الجامعة في وقت كان الحجاب قد أصبح غريبًا حتى صار مستهجنًا خاصة بين طالبات الجامعة اللواتي كن يقلدن دعاة التغريب ، وقالوا بأن المرأة المسلمة ستتخلى عن كل شيء في سبيل التعليم ودعاوى المساواة بالرجل .

مشوار حياة الدكتورة/ زهيرة حافل ، ويتجلى فيه السبق ، كما لا يتجلى في غيره ، فقد حصلت على شهادة الثانوية العامة عام (١٩٣٦م) ، وكانت الأولى على مستوى مصر

كلها ، وهي أول طبيبة عربية تحصل على درجة عضوية كلية الأطباء الملكية بلندن سنة (١٩٤٨م) ، كما كانت أول سيدة تُعيَّن في هيئة التدريس بالجامعات المصرية سنة (١٩٤٩م) .

وبالتالي لم يكن تفوقها منحصرًا داخل مصر ، أو في حدود الوطن العربي فحسب ، لكنها كانت الطبيبة الوحيدة التي نالت الدكتوراه الفخرية في العلوم الطبية من جامعة أدنبرة بإنجلترا على مستوى العالم كله عام (١٩٨٠م) ، كما أنها كانت العربية الوحيدة التي منحت جائزة إليزابيث نورجل (E.Norge) العالمية من النادي النسائي الدولي .

أسست أول كلية لطب البنات في الإمارات عام (١٩٨٦م) ، ووضعت مناهجها ، وعكفت على إدارتها زهاء سبعة أعوام .

كانت لها مساهمات واسعة في العمل الخيري والاجتماعي ، فكانت رائدة الطب الاجتماعي في مصر ، فأسست جمعية أصدقاء مرضى روماتيزم القلب للأطفال عام (١٩٥٧م) ، ودارًا لرعاية الطلبة المعوزين والمتفوقين عام (١٩٦٢م) ، وأنشأت سلسلة مدارس الطلائع الإسلامية منذ أكثر من (٢٥) عامًا ، ودارًا للمسنات ، وساهمت في إنشاء جمعية الشابات المسلمات بالقاهرة ، وتولت رئاستها ، وأقامت وقفًا لتعليم مسلمي البوسنة .

منحتها نقابة الأطباء المصرية لقب (أم الأطباء) بمصر

عام (١٤١١هـ) / (١٩٩٠م) ، ومنحتها كلية الطب لقب أستاذ كرسي طب المجتمع .

عرف عنها أنها ربة بيت من الطراز الأول ، وأنجبت أربعة أولاد (ثلاث بنات وولدًا واحدًا) حصلوا جميعًا على شهادة الدكتوراه ، منهن عالمة السياسة الدكتورة/ منى أبو الفضل .

توفيت – رحمها الله – في ٢٣ من صفر ١٤٢٣هـ /٦ من مايو (٢٠٠٢م) [١] .

وهكذا تعطينا هذه المرأة الصالحة ، والعالمة الفاضلة ، عدة دروس من مشوار حياتها .. من أهم هذه الدروس :

١ – التربية الصالحة ، والتنشئة الإسلامية للطفل منذ الصغر تساعد على تفوقه ونبوغه في الكبر ، وتحصنه من مخططات أعداء الله تعالى .

٢ – أن تمسك المرأة بإسلامها وحجابها ، لا يمنعها من التفوق ، وتبوّأ أعلى المراكز العلمية ، بل على العكس لعله يكون دافعًا لذلك .

٣ – قوةُ إيمان المرأة وصلابةُ إرادتها ، تجعلها تستطيع أن تجمع بين بناء الأسرة الإسلامية الصالحة ، وبين تلقي العلم النافع والقيام بالعمل الصالح .

---

(١) إسلام أون لاين نت – مجاهيل ومشاهير – (٢٠٠٢/٥/٢٨م) .

٤ - أن العلم يجب أن يكرس لخدمة المجتمع .

ثالثًا : المرأة الصالحة تحث أبناءها على طلب العلم :

قد لا تستطيع المرأة أن تتلقى العلم ، أو لا تمكنها نشأتها وبيئتها وإمكاناتها من ذلك ، ولكنها تستطيع أن تقدم للأمة عالمًا من خلال دفع ولدها إلى تلقي العلم ، وحثه على ذلك ، ومساعدته بما تستطيع من مال ورعاية ونصح وتوجيه ، وهذا هو ما فعلته نساء السلف الصالح - رحمهن الله - حيث ضربن أعلى النماذج في صناعة العلماء ، ورعاية الأبناء الذين تبوؤا بعد ذلك المكانة المرموقة بين علماء الأمة ، حتى صار الفضل في وجود هؤلاء يرجع في الأصل إلى أمهاتهم .

والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة ، منها :

١ - أم الإمام سفيان الثوري - رحمهما الله - :

قال وكيع « قالت أم سفيان لسفيان : اذهب فاطلب العلم ، وأنا أعولك بمغزلي ، فإذا كتبت عشرة أحاديث فانظر هل تجد في نفسك زيادة في مشيك وحلمك ووقارك ، فإن لم يزدك فاعلم أنه لا يضرك ولا ينفعك »[1] .

٢ - أم الإمام مالك - رحمهما الله - :

حدث الإمام مالك عن بدء طلبه للعلم فقال « قلت لأمي : أذهب فأكتب العلم ؟ فقالت : تعال فالبس ثياب

---

(١) سير أعلام النبلاء - (٢٦٩/٧) ، وصفة الصفوة - (١٨٩/٣) .

العلم ، فألبستني ثيابًا سمرة ، ووضعت الطويلة على رأسي (قلنسوة مفرطة الطول) ، وعممتني ، ثم قالت : اذهب فاكتب الآن ، وقالت له : اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه » [١] .

٣ – وكذلك الإمام الشافعي رحمه الله :

تتولى تربيته والعناية به أمه – رحمها اللّٰه – حيث رُبي يتيمًا في حجرها وهي فاطمة بنت عبد اللّٰه بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ؛ فتعهدته – رحمها اللّٰه – بمدارسة العلماء والأخذ عنهم ، حتى صار إمامًا يقتدى به ، قل أن تجود الدنيا بمثله [٢] .

٤ – وأيضًا الإمام ربيعة بن عبد الرحمن ، المشهور بربيعة الرأي :

شيخ الإمام مالك – رحمهما اللّٰه – ومن قال عنه « ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة » .. وقد اشتهر عنه أن أباه خرج غازيًا ، وربيعة حَمَلٌ في بطن أمه ، وخلف مالًا عند زوجته أم ربيعة ؛ فقدم المدينة بعد سنين طويلة ليجد ابنه قد فاق أهل زمانه علمًا وفقهًا [٣] .

---

(١) مالك بن أنس – الأستاذ / أمين الخولي – (ص٥٣ ، ٦١) – طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب – سنة (١٩٩٤م) .

(٢) انظر : الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة – الدكتورة/ مها الأبرش – (١/٦٩ ، ٧٠) – طبعة جامعة أم القرى بمكة المكرمة – سنة (١٤١٧هـ) .

(٣) الأمومة ومكانتها في الإسلام في ضوء الكتاب والسنة – (ص٧١) .

وغير هؤلاء كثير من الأئمة الأعلام ممن نشأوا أيتامًا في حجور أمهاتهم ، فقامت أمهاتهم بتربيتهم وتعليمهم حتى صار يشار لهم بالبنان .

وقد صدقت السيدة/ عائشة رضي الله عنها حين تحدثت عن أثر الأم في تعليم أبنائها حين دخل عليها ابنا أخويها : ابن أبي عتيق والقاسم [١] .

عن ابن أبي عتيق قال : تحدثت أنا والقاسم عند عائشة رضي الله عنها حديثًا ، وكان القاسم رجلًا لحانةً (كثير اللحن والخطأ في الكلام) ، وكان لأم ولد ، فقالت له عائشة « ما لك لا تحدث كما يتحدث ابن أخي هذا ؟ ، أما إني قد علمت من أين أتيت ، هذا أدبته أمه ، وأنت أدبتك أمك » [٢] .

فأين هؤلاء الأمهات اللاتي يقدمن للأمة الآن أمثال هؤلاء العلماء ؟ إن المرأة المسلمة يجب أن تعي هذا الدور جيدًا ، وتعلم أنها المحضن الرئيس الذي يخرّج للأمة علماءها وقوادها ؛ وبدون هذا المحضن تضيع الأمة ،

---

(١) ابن ابن عتيق بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .
صحيح مسلم بشرح النووي – مجلد ٢ – (٤٧،٤٦/٥) – طبعة أولى – دار الريان – سنة (١٩٨٧م) .

(٢) صحيح مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام المراد أكله .

ويذهب نسلها سُدًى .. وصدق من قال :

الأم مدرسة إذا أعددْتَها

أعددْتَ شعبًا طيب الأعراقِ

رابعًا : ما أثر عن المرأة الصالحة من الحكم :

حفظ لنا التاريخ الإسلامي كثيرًا من الحكم التي نطقت بها نساء صالحات من هذه الأمة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وفور عقل المرأة الصالحة ، وكثرة تجاربها ، وسعة مداركها ، وحسن تعبيرها عما يجيش في خواطرها .

والحكمة من نعم الله ﷻ على عباده ، يهبها لمن يشاء منهم ذكرًا كان أم أنثى ؛ قال تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩] .

فإذا أجرى الله ﷻ على لسان عبد من عباده الحكمة ، فقد خصه بخير عميم ، وحباه بفضلٍ جزيل ؛ وجعل ما يخرج من لسانه درسًا بليغًا ، وعظةً مؤثرةً للناس جميعًا .

ومما أثر من الحكم عن بعض النساء الصالحات ، ما يلي :

١ - قالت فاطمة النيسابورية - رحمها الله - : « من لم يكن الله منه على بال : فإنه يتخطى في كل ميدان ، ويتكلم بكل لسان ؛ ومن كان الله منه على بال : أخرسه إلا عن الصدق ، وألزمه الحياء منه والإخلاص له » .

وقالت أيضًا : « الصادق والمتقي اليوم في بحر تضطرب عليه أمواجه ، يدعو ربه دعاء الغريق ، يسأل ربه الخلاص والنجاة » .

وقالت : « من عمل للّٰه على المشاهدة : فهو عارف ، ومن عمل على مشاهدة اللّٰه إياه : فهو مخلص » .

وهو معنى حديث النبي ﷺ : « **اعبد اللّٰه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » [1] .

وقال لها ذو النون المصري يومًا : « عظيني » فقالت له « إلزم الصدق ، وجاهد نفسك في أفعالك وأقوالك ؛ لأن اللّٰه تعالى قال : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢١] » [2] .

٢ - قالت لبابة العابدة : « المعرفة للّٰه تورث المحبة له ، والمحبة للّٰه تورث الشوق إليه ، والشوق إليه يورث الأنس به ، والأنس به يورث المداومة على خدمته وموافقته » [3] .

٣ - وقالت عائشة بنت أبي عثمان لابنتها : « لا تفرحي بفانٍ ، ولا تجزعي من ذاهب ، وافرحي باللّٰه ﷻ ، واجزعي

---

(١) جزء من حديث - سبق تخريجه تُذْكَر .

(٢) سورة محمد - الآية (٢١) - ذكر النسوة المتعبدات لأبي عبد الرحمن السلمي - (ص٦٢) ؛ وصفة الصفوة - (١٢٤/٤) ؛ وأعلام النساء - (١٤٨/٤ ، ١٤٧) .

(٣) ذكر النسوة المتعبدات - (ص٥٢) .

من سقوطك من عين الله ﷻ » .

وقالت لها أيضًا : « الزمي الأدب ظاهرًا وباطنًا ، فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عوقب ظاهرًا ، ولا أساء أحد الأدب باطنًا إلا عوقب باطنًا » .

وقالت : « من استوحش من وحدته فذاك لقلة أنسه بربه » .

وقالت : « من تهاون بالعبد فهو من قلة معرفته بالسيد ، فمن أحب الصانع أحب صنعته » (١) .

٤ - وقالت بحرية العابدة : « إذا ترك القلب الشهوات ، ألِف العلم واتبعه ، واحتمل كلَّ ما يرد عليه (أي ما يرد عليه من فيوضات اللّٰه وإلهاماته) » (٢) .

٥ - قالت أخت أبي سليمان الداراني : « الفقراء كلهم أموات ، إلا من أحياه اللّٰه تعالى بعز القناعة ، والرضا بفقره » (٣) .

٦ - قالت زبدة أخت بشر الحافي : « أثقل شيء على العبد الذنوب ، وأخفه عليه التوبة ، فما له لا يدفع أثقل شيء بأخف شيء ؟! » (٤) .

هذه بعض الحكم التي أثرت عن بعض النساء الصالحات

---

(١) صفة الصفوة - (١٢٥/٤) ؛ وأعلام النساء - (١٥٨/٣) .
(٢) صفة الصفوة - (٣٩/٤) ؛ وذكر النسوة المتعبدات - (ص٦٦) .
(٣) ذكر النسوة المتعبدات - (ص٨٩) .
(٤) المرجع السابق - (ص٨٨) .

من سلف الأمة ، وهي قليل من كثير مما وعته كتب التراجم عنهن ؛ وقد آثرت ذكرها دون شرح أو تعليق لئلا يتسع بنا المقام ، ونخرج عن موضوع الكتاب .. ولعل الله ﷻ يوفق الكاتب أو غيره لجمع هذه الحكم والتعليق عليها وشرحها في مؤلف مستقل عن حكم الصالحات .

* * *

الفَصلُ الرَّابعُ

هكذا كانت مع زوجها وأولادها

هكذا كانت مع زوجها وأولادها

يهدف الإسلام إلى بناء أسرة إسلامية تقوم دعائمها على تقوى الله ﷻ ويتعامل أفرادها وفق ما يحبه الله ﷻ ويرضاه ، فلا تسمع فيها ما يجرح المشاعر ، ولا ترى فيها ما ينغص العيش ، ويجلب الهمَّ ؛ بل تشيع المودة والسكينة والرحمة في جنباتها فيصير البيت واحة الصفاء ، وساحة الحب ، وبستان السعادة ، وبلسم الشفاء من هموم الحياة وأكدارها .

وهذه الأسرة هي النواة لبناء مجتمع متماسك يقدم صورة الإسلام الصحيحة ، ويستطيع أن ينشر دين الله في كل بقعة ، ويذود عن العقيدة في أي مكان .

وهي - أيضًا - الأرض الطيبة التي تخرج الثمر الطيب ، والنبت الحسن الذي يحمل اسم الإسلام ، ويرضع قيمه ومبادئه من صغره ، فحين يستوي على سوقه في شبابه يصبح صورة مشرفة لهذا الدين ، معبرة عن أهدافه وتعاليمه .

والمرأة في الأسرة حجر الزاوية ، وأساسها الأول ، ودعامتها الكبرى فهي الزوجة ، والأم ، والبنت ، والأخت .. ومن ثم فقد أولاها الإسلام اهتمامًا كبيرًا ، ورعاها رعايةً عظيمةً ، ورباها على حسن أداء مسؤوليتها نحو زوجها وأبنائها ، أداء رسالةٍ وحب ، لا أداء واجباتٍ وحقوقٍ ، أداءً تبغي به مرضاة الله ﷻ في الدنيا والآخرة ، لا انتظارًا

لشكرٍ من أحد ، أو حرصًا على ثناء من مخلوق .

يقول النبي ﷺ : « **إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت** » (١) .

ويقول ﷺ : « **أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ ، دخلت الجنة** » (٢) .

ولما سألت السيدة أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عدم خروج النساء إلى الجهاد والجُمع والجماعات ، قال لها ﷺ : « **انصرفي يا أسماء ، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت** » (٣) .

هكذا ربَّى الإسلام المرأة في علاقتها مع زوجها ، وقد أثّرت هذه التربية في خلق المرأة المسلمة مع زوجها وأولادها ، فأطاعت المرأة الصالحة زوجها في غير معصية ، وأعانته على

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده - (١٩١/١) ، وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني في الأوسط ، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح « مجمع الزوائد (٣٠٦/٤) » .

(٢) سنن الترمذي - كتاب الرضاع - باب ما جاء في حق الزوج على المرأة ، وقال حديث حسن غريب ؛ وابن ماجه - كتاب النكاح - باب حق الزوج على المرأة .

(٣) رواه البزار والطبراني ، وقال الهيثمي : فيه راو ضعيف « مجمع الزوائد (٣٠٥/٤) » .

طاعة الله [redacted] ، وحفظت سره ، وواسته بمالها ، وحفظته في نفسها وماله عند غيابه .

كذلك قامت بتربية أولادها أحسن تربية ، وتعهدتهم بالأخلاق الفاضلة والتزكية ، حتى صاروا نماذج طيبة في مجتمعاتهم .

فضربت بهذا وذاك المثل العملي لمن وصفهن الله ﷻ بالصلاح في كتابه الكريم ، وأثنى عليهن ، ورفع من شأنهن ، فقال – عز من قائل – : ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النساء : ٣٤] .

يقول صاحب الظلال : « من طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفاتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها أن تكون قانتةً : مطيعةً ، والقنوت : الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة ، لا عن إرغام وقسر وتفلت ومعاضلة ؛ ومن ثم قال : قانتات ، ولم يقل : طائعات ؛ لأن مدلول اللفظ الأول نفسي ، وظلاله رخية ندية .. وهذا الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة ، في المحضن الذي يرعى الناشئة » ويطبعهم بجوه وأنفاسه وظلاله وإيقاعاته

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفاتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاحها كذلك : أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته – وبالأولى في حضوره – فلا تبيح من نفسها في نظرةٍ أو نبرةٍ – بله العرض والحرمة – ما لا يباح إلا له هو بحكم أنه الشطر

الآخر للنفس الواحدة .

وما لا يباح لا تقرره هي ، ولا يقرره هو ، إنما يقرره الله ﷻ : ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ ، فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته من نفسها - في غيبته أو في حضوره - ما لا يغضب هو له ، أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع إذا انحرف المجتمع عن منهج الله .

إن هنالك حكمًا واحدًا في حدود هذا الحفظ ، فعليها أن تحفظ نفسها ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ ، والتعبير القرآني لا يقول هذا بصيغة الأمر ، بل بما هو أعمق وأشد توكيدًا من الأمر ، إنه يقول : إن هذا الحفظ بما حفظ الله هو من طبيعة الصالحات ، ومن مقتضى صلاحهنَّ .

وعندئذ تتهاوى كل أعذار المهزومين والمهزومات من المسلمين أمام ضغط المجتمع المنحرف ، وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ مع القنوت الطائع الراضى الودود » [1] .

والأمثلة على هؤلاء الصالحات اللاتي وصفتهنَّ الآية الكريمة أكثر من أن تحصى في كل عصر ومصر .

وحتى تستمر الدراسة التي معنا في مجراها الطبيعي عن صفات هؤلاء الصالحات لا عن أعيانهن ، فإني سأتناول حياتهن

---

(١) في ظلال القرآن - الأستاذ/ سيد قطب - م٢ (ص٦٥٢،٦٥٣) - الطبعة السادسة والعشرون - دار الشروق - سنة (١٩٩٧م) .

مع أزواجهن وأولادهن من خلال عنصرين أساسيين وهما :

١ - حسن عشرتها لزوجها .

٢ - حسن تربيتها لأولادها .

وذلك على النحو التالي :

أولًا : حسن عشرتها لزوجها :

حدد لنا النبي ﷺ صورة المرأة الصالحة التي تحسن عشرة زوجها وتؤدي حق الله ﷻ فيه من خلال صفات معينة ذكرها لنا في أحاديث متعددة ، من هذه الأحاديث :

١ - قوله ﷺ : « **ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها أبرّته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله** » (١) .

٢ - وسئل ﷺ : أي النساء خير ؟ فقال : « **التي تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ولا في مالها بما يكره** » (٢) .

٣ - ولما نزل قوله ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ٣٤] قال بعض الصحابة : أنزل في الذهب والفضة

---

(١) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح - باب أفضل النساء .

(٢) سنن النسائي - كتاب النكاح - باب أي النساء خير .

ما أنزل ، لو علمنا أي المال خير فنتخذه ! فقال ﷺ : « **أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه** » (١) .

٤ - **وقال ﷺ : « خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يد »** (٢) .

٥ - **وقال ﷺ : « رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى ، ثم أيقظ أهله ، فإن أبت نضح الماء في وجهها ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ، ثم أيقظت زوجها فإن أبى نضحت الماء في وجهه »** (٣) .

من خلال هذه الأحاديث وغيرها ، نستطيع أن نضع ملامح محددة لحسن عشرة المرأة الصالحة مع زوجها من خلال النقاط التالية :

١ - تعينه على طاعة الله ﷻ .

٢ - تؤدي حقه وتحسن صحبته .

٣ - تواسيه بمالها .

---

(١) سنن الترمذي - كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة التوبة ، وقال حديث حسن .

(٢) صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب إلى من ينكح وأي النساء خير ، وصحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب من فضائل نساء قريش .

(٣) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب قيام الليل ، وسكت عنه ، وسنن النسائي - كتاب قيام الليل وتطوع النهار - باب الترغيب في قيام الليل .

٤ - تحفظه في نفسها وماله عند غيبته .

٥ - لا تفشي سره .

وتحت كل ملمح من هذه الملامح ، أقدم نموذجًا من الصالحات ، ليكون واقعًا عمليًا ، وقدوة طيبة أمام أخواتنا المسلمات ، وذلك على النحو التالي :

١ - تعينه على طاعة الله ﷻ .

قالت عمرة امرأة حبيب العجمي له - وقد انتبهت ليلة وهو نائم في السحر - : قم يا رجل ، فقد ذهب الليل وجاء النهار ، وبين يديك طريق بعيد وزاد قليل ، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ، ونحن قد بقينا [١] .

وعن أبي جعفر السائح قال : بلغنا عن امرأة متعبدة كانت تقول لزوجها : قم ويحك إلى متى تنام ؟ قم يا غافل ، قم يا بطال ، إلى متى أنت في غفلتك ؟ أقسمت عليك أن لا تكسب معيشتك إلا من حلال ، أقسمت عليك أن لا تدخل النار من أجلي ، بِرَّ أمك ، صِلْ رحمك ، لا تقطعهم فيقطع الله بك [٢] .

وعن عامر بن أسلم الباهلي عن أبيه قال : كانت لنا جارية في الحي يقال لها هنيدة ، فكانت تقوم إذا مضى من الليل ثلثه أو نصفه ، فتوقظ والدها وزوجها وخدمها فتقول لهم : قوموا فتوضؤوا وصلوا ، فستغبطون بكلامي هذا ..

---

(١) صفة الصفوة - (٣٥/٤) . (٢) السابق - (٤٣٧/٤) .

فكان هذا دأبها معهم حتى ماتت ، فرأى زوجها في منامه : إن كنت تحب أن تزوجها هناك فاخلفها في أهلها بمثل فعلها .. فلم يزل دأب الشيخ حتى مات ، فأتى أكبر ولده في منامه فقيل له : إن كنت تحب أن تجاور أبويك في درجتهما في الجنة فاخلفهما في أهلهما بمثل عملهما .. قال : فلم يزل ذلك دأبه حتى مات ، فكانوا يُدْعون القوامين [١] .

وصدق ربنا - جل علاه - : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ .

أما زوجة رياح القيسي ، فقد كانت نِعْمَ الزوجة له بالنهار في عمل الدنيا ، ونعم المعينة له بالليل على عمل الآخرة ، وكان هذا دأبها من أول يوم تزوج بها .

عن أبي يوسف البزاز قال : تزوج رياح القيسي امرأة فبني بها ، فلما أصبح قامت إلى عجينها ، فقال : لو نظرت إلى امرأة تكفيك هذا ؟ فقالت : إنما تزوجت رياحًا القيسي ، ولم أرني تزوجت جبارًا عنيدًا .. فلما كان الليل نام ليختبرها ، فقامت ربع الليل ثم نادته : قم يا رياح ، فقال : أقوم .. فقامت الربع الآخر ثم نادته : قم يا رياح ، فقال : أقوم ، فلم يقم .. فقامت الربع الآخر ثم نادته : قم يا رياح ، فقال : أقوم ، فقالت : مضى الليل ، وعسكر المحسنون ،

---

(١) صفة الصفوة - (٣٩١/٤) .

وأنت نائم ، ليت شعري من غرني بك يا رياح ، قال : وقامت الربع الباقي .

فلنعم هؤلاء الزوجات اللاتي يُعنَّ أزواجهن على قيام الليل ، وعلى بر الأمهات ، وصلة الأرحام ، وكسب الحلال .. وأين منهن زوجاتنا ، وأخواتنا اليوم اللاتي يرهقهن أزواجهن بهموم المعاش ، ومشكلات الحياة ، ولا يكلفن أنفسهن أن يدعين أزواجهن إلى ركعتين بالليل ، أو إلى صلاة الفجر في جماعة ، أو إلى الصدقة وصلة الرحم ... إلخ ؟!

إن المرأة الصالحة تستطيع بما تملك من وسائل التأثير على زوجها ، أن تجعله يستجيب لطاعة اللّٰه ﷻ ، ويقلع عن المعاصي والذنوب ، لو أنها جعلت ذلك هدفًا رئيسًا لها في حياتها معه ، ويكفي أنها بذلك ستأخذ من الأجر والثواب مثل ما يأخذ زوجها ، كما أخبر النبي ﷺ : « **من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من دعاهم ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا** » (١) .

وكما قال ﷺ : « **الدال على الخير كفاعله** » (٢) .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب العلم - باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة .

(٢) سنن الترمذي - كتاب العلم - باب ما جاء الدال على الخير كفاعله ، وقال : حديث غريب من هذا الوجه .

٢ - تؤدي حقه وتحسن صحبته .

ولا يحسبن أحد أن المرأة الصالحة حينما أعانت زوجها على طاعة اللَّه ﷺ قصرت في حقوقه الدنيوية ، كلا ، فهي تعلم أن حق زوجها مقدَّمٌ على صلاة النافلة وصيام النافلة .

كما قال ﷺ : « **لا يحلُّ للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه** » (١) ، فها هي امرأة رياح - التي ذكرتها آنفًا - تتجمل وتتعطر له ، كما يحدث هو عن ذلك فيقول :

عن سيار قال : حدثني رياح القيسي قال : ذُكرت لي امرأة فتزوجتها فكانت إذا صلت العشاء الآخرة تطيبت ، وتدخنت ، ولبست ثيابها ، ثم تأتيني فتقول : ألك حاجة ، فإن قلت : نعم ، كانت معي ، وإن قلت : لا قامت فوضعت ثيابها وصفت قدميها بين يدي اللَّه حتى تصبح (٢) .

وحتى ترى صورة متكاملة لحسن تأدية امرأة لحق زوجها من أول يوم تزوج بها ، وطيلة حياتها معه ، انظر إلىٰ زينب بنت حدير زوجة شريح القاضي - رحمهما اللَّه - وقصة زواجه بها ، وكيف عاشت معه ، وما يحكيه هو عن ذلك :

---

(١) صحيح البخاري « وهذا لفظه » - كتاب النكاح - باب : « لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه » ؛ وصحيح مسلم « بنحوه » - كتاب الزكاة - باب ما أنفق العبد من مال مولاه .

(٢) صفة الصفوة - (٤/٤٤) .

عن الشعبي قال : لقيني شريح فقال لي : يا شعبي عليك بنساء بني تميم ، فإني رأيت لهن عقولًا ، فقلت : وما رأيت من عقولهن ؟ قال : تزوجت امرأة منهن ، فلما صارت في حبالي ندمْتُ وقلت : أي شيء صنعْتَ بنساء بني تميم ، وذكرْتُ غلظ قلوبهن ، فقلتُ : أطلقها ، ثم قلت : ولكن أدخل بها ، فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك .. فلو شهدتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتى أدخلت علي ، فقلت : إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلي ركعتين ، ويسأل اللَّه ﷻ من خيرها ، ويتعوذ من شرها .. فتوضأت ، فإذا هي تتوضأ بوضوئي ، وصليت فإذا هي تصلي بصلاتي ، فلما قضيت صلاتي ودنوت منها فمددت يدي إلى ناصيتها فقالت : على رسلك أبا أمية ، ثم قالت : الحمد للَّه أحمده وأستعينه وأصلي على محمد وآله ، أما بعد : فإني امرأة غريبة ، لا علم لي بأخلاقك ، فبيِّنْ لي ما تحب فآتيه ، وما تكره فأجتنبه ، فإنه قد كان لك منكح في قومك ، ولي في قومي مثل ذلك ، ولكن إذا قضى اللَّه أمرًا كان مفعولًا ، وقد ملكت فاصنع ما أمرك اللَّه [redacted] به ؛ إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، أقول قولي هذا وأستغفر اللَّه العظيم لي ولك ولجميع المسلمين .. قال : فأحوجتني واللَّه يا شعبي إلى الخِطبة في ذلك الموضع ، فقلت : الحمد للَّه أحمده وأستعينه وأصلي على محمد وآله ، أما بعد : فإنك قلت كلامًا إن ثبت عليه يكن

ذلك حظًّا لي ، وإن تدعيه يكن حجة عليك ، أحب كذا وأكره كذا ، وما رأيت من حسنة فأظهريها ، وما رأيت من سيئة فاستريها .. فقالت : كيف محبتك لزيارة الأهل ؟ قلت ما أحب أن يملني أصهاري ، قالت : فمن تحب من جيرانك يدخل دارك آذن له ، ومن تكرهه أكرهه ، قلت : بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء .. قال : فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة ، ومكثت معي حولًا لا أرى منها إلا ما أحب ، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء ، وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهى ، قلت من هذه ؟ قالوا : فلانة أم حليلتك ، قلت : مرحبًا وأهلًا وسهلًا ، فلما جلست أقبلت العجوز فقالت : السلام عليك يا أبا أمية ، فقلت : وعليك السلام ومرحبًا بك وأهلًا ، قالت : كيف رأيت زوجتك ؟ قلت : خير زوجة ، وأوفق قرينة ، لقد أدبتِ فأحسنت الأدب ، وريضت فأحسنت الرياضة ، فجزاك اللّٰه خيرًا ، فقالت : يا أبا أمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالًا منها في حالتين ، قلت : وما هما ؟ قالت : إذا ولدت غلامًا ، أو حظيت عند زوجها ، فإن رابك مريب فعليك بالسوط ، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أشر من الروعاء المدللة ، فقلت : واللّٰه لقد أدبت فأحسنت الأدب ، وريضت فأحسنت الرياضة ، قالت : كيف تحب أن يزورك أصهارك ؟ قلت : ما شاؤوا ، فكانت تأتيني في رأس كل

حول فتوصيني بتلك الوصية ، فمكثت معي يا شعبي عشرين سنة لم أعِبْ عليها شيئًا ما ، وكان لي جار من كندة يفزع امرأته ويضربها ، فقلت في ذلك :

رأيت رجالًا يضربون نساءهم
فَشلَّت يميني يوم تُضرَب زينبُ
أأضربها من غير ذنب أتت به
فما العدل مني ضرب من ليس يذنبُ
فزينب شمس والنساء كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكبُ (١)

ولعل سائلًا يسأل : وكيف استطاعت زينب هذه أن لا تغضب زوجها ، وأن لا يرى منها سوءًا طيلة عشرين سنة ؟ والجواب : أنها أُدِّبت في بيت أبيها وأمها على طاعة زوجها ، وحسن عشرته لذا أثنى سيدنا شريح على هذه التربية قائلًا لأمها : لقد أدبتِ فأحسنتِ الأدب ، وريضت فأحسنتِ الرياضة .

وفي هذا درس - أيمًّا درس - للأمهات التي تربين زوجات المستقبل ، كيف تربِّي ؟ وكيف تنشأ الفتاة على احترام زوجها وطاعته ؟ إن كثيرًا من البيوت تهدم قبل أن تبنى بسبب أن الفتاة قد دللت في بيت أبيها وأمها ، فلما

(١) المستطرف في كل فن مستظرف - (ص٤٦١،٤٦٢) ؛ أعلام النساء - (٦٤/٢) .

انتقلت إلى بيت زوجها فوجئت بما لم يكن لديها علم به من مسؤولية البيت ، ومن معاملة الزوج ، ففشلت فشلًا ذريعًا في كل ذلك .

ألا فلتتق الله ﷻ الأمهات في تربيتهنَّ لبناتهنَّ ! ولتتعظ بما قالته ابنة سعيد بن المسيب ﷺ التي سبق الحديث عنها في الفصل السابق - حين وضحت أثر البيت الذي تخرج منه الفتاة على حسن صحبتها لزوجها ، فقالت : ما كنا نعلم أزواجنا إلا كما تعلمون أنتم أمراءكم [(١)] .

ولاحظي معي أيتها الأخت المسلمة قولها : نعلم ، أي أنها تعلمت وتربت على ذلك في بيت أبيها وأمها قبل زواجها ، فلما تزوجت قامت بحق زوجها حق القيام ، وزوجها كان فقيرًا وكان طالب علم في حلقة أبيها ، ومع ذلك يقول عنها وعن أخلاقها « ثم دخلت بها فإذا هي من أجمل النساء ، وإذا هي أحفظ الناس لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ ، وأعرفهم بحق الزوج » [(٢)] .

ومن حسن صحبة الزوج ، وجميل معاشرته ، أن تحسن الزوجة إلى أهله ، وتقوم على خدمتهم ، وتصلهم ، وترعى

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العيال - (٧٣٩/٢) نقلًا من منهج التربية النبوية للطفل - الأستاذ/ محمد نور سويد - (٦٩/١) - الطبعة الأولى - دار ابن كثير - بيروت - سنة (١٩٩٨م) .

(٢) المرجع السابق - (٧٠/١) .

شؤونهم رعاية لحب زوجها لهم ، ولقرابتهم منه ، فهي إن فعلت ذلك كسبت قلب زوجها ، واستفادت عائلةً جديدةً لها .

ولندع المجال للأستاذ/ وحيد الدين خان ، يحدثنا عن هذه التجربة الواقعية لفتاة مسلمة عاشت في بيت عائلة زوجها ، وما أقسى أن تجد الفتاة نفسها في وسط عائلة كبيرة تحتاج أن تتعامل مع جميع أفرادها .

يقول الأستاذ وحيد خان : كانت هناك فتاةٌ واعيةٌ عاقلةٌ ، لم تكد تصل منزل أهل زوجها بعد الزواج حتى تعرضت للانتقاص من شأنها من قبل نساء العائلة الجديدة لكونها دميمة ، وكانت الهمسات تدور حول عدم تمتعها بأية سمة من الجمال بين هؤلاء النسوة ، في أول الأمر من وراء ظهرها ، إلى أن تطورت إلى تعليقات جارحة موجهة إليها مباشرة حول دمامتها ، حتى تحولت العروس إلى شخص تافه لا يعتد به بين أفراد العائلة الجديدة .

وهكذا وجدت هذه الفتاة نفسها في موقف حرج ، إلا أنها قررت ألا تبوح لوالديها ، كما قررت في صمت أن تتغاضى عما تتداوله نساء العائلة بشأنها ، وأن تخدم أهل زوجها بكل إخلاص ، فتطوعت للقيام بسائر الأعمال المنزلية ، وبدأت برعاية متطلبات كافة أفراد الأسرة ، وسخّرت نفسها لأجل توفير الراحة لكل شخص في البيت ، بدلًا من أن تؤذي أيًا منهم .

وكان ذلك مخططًا مرهقًا طويل الأجل ، استنفذ سنوات وليس شهورًا لأجل أن يحقق غايته . وبدأت الأوضاع تنفرج لصالحها تدريجيًا حتى نالت تقدير العائلة ، وأصبح كل فرد فيها يعاملها بالود والاحترام . فحصلت على وضع (سيدة البيت) بعد أن كان ينظر إليها أول الأمر كخادمة [١] .

وما فعلته هذه الفتاة يعتبر الحل الأمثل لما يثار من مشكلات بين الزوجة وعائلة زوجها ، فلو بالغت الفتاة في الإحسان إلى حماتها ، واتخذتها أمًّا لها ، لقطعت الطريق على الشيطان أن ينزغ بينهما ؛ ولو أحسنت الزوجة إلى إخوة زوجها وأخواته كما تحسن إلى إخوتها وأخواتها هي ، لسارت سفينة حياتها في مجراها الطبيعي دون عواصف أو قلاقل .

وصدق ربنا جل وعلا حين قال : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤] .

وكما قال الشاعر :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

---

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية - (ص٢٩٣) - الطبعة الأولى - دار الصحوة ودار الوفاء - سنة (١٩٩٤م) .

ومن حسن عشرة المرأة الصالحة لزوجها ، ألا تطلب منه الطلاق لأي سبب من الأسباب التافهة ، بل تحرص على استدامة العيش معه ، وتتحمل ما يحدث منه ، مستجيبة لقول النبي ﷺ : « **أيمًّا امرأة سألت زوجها طلاقًا من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة** » (١) .

واسمع إلى هذه القصة عن هذه المرأة التي ملَّكها زوجها أمر نفسها ، فاختارت المحافظة على حياتها معه على هدم عشها في ساعة غضب .

كان عند الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ امرأة من قريش ضجرت منه يومًا فقال لها : أمرك في يدك - أي لها الخيار في البقاء في عصمته ، وفي أن تطلق نفسها - فقالت له : أما والله لقد كان في يدك عشرين سنة فحفظته ، وأحسنت صحبته ، فلن أضيعه إذا كان في يدي ساعة من نهار ، فأعجبه قولها ، وأحسن صحبتها (٢) .

فلتنظر المرأة المسلمة إلى حسن تصرف هذه الزوجة ، ولباقة كلامها ، حين تذكرت معاشرة زوجها لها هذه المدة الطويلة ، وتمسكه بها ، فلم تضيع كل ذلك في لحظة غضب ، وفي هذا درس للمرأة التي تكثر من طلب الطلاق

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الطلاق واللعان عن رسول الله - باب ما جاء في المختلعات .

(٢) المرأة في التصور الإسلامي - الأستاذ/ عبد المتعال الجبري - (ص١١٠) .

من زوجها ، أو يصبح أهون شيء عندها هدم عشها وتمزيق أسرتها .

٣ – تواسيه بمالها :

جعل الله ﷻ مال المرأة حقًّا خالصًا لها ، يمكنها أن تتصرف فيه كيفما تشاء ، وشدد على ذلك في القرآن الكريم ، حتى لا يستغل أحد – زوجًا كان أو غيره – ضعف المرأة لكي يستولي على أموالها ، قال تعالى : ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء: ٧] .

وقال – عز من قائل – : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ﴾ [النساء: ٣٢] .

وقال – جل في علاه – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ١٩، ٢١]

وقال ﷻ : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ [النساء: ٤] .

ومع ذلك فقد نظرت المرأة الصالحة إلى زوجها نظرة أعلى من نظرتها لمالها ، فبذلت مالها في سبيل إسعاد زوجها ، مقتدية في ذلك بأمنا خديجة رضي الله عنها حين واست النبي ﷺ بمالها ، وحدّث هو ﷺ عن ذلك فقال : « **وواستني بمالها إذ حرمني الناس** »[1] .

ومن هؤلاء رابعة بنت إسماعيل زوجة أحمد بن أبي الحواري وكانت موسرة ، فأنفقت جميع ما تملك على أحمد وأصحابه .

وقد أورد الإمام الغزالي في الإحياء قصة زواجها بأحمد فقال : خطبت رابعة بنت إسماعيل أحمد بن أبي الحواري ، فكره ذلك لما كان فيه من العبادة ، وقال لها : واللّه ما لي همة في النساء لشغلي بحالي ، فقالت : إني لأشغل بحالي منك وما لي شهوة ، ولكن ورثت مالًا جزيلًا من زوجي فأردت أن تنفقه على إخوانك ، وأعرف بك الصالحين فيكون لي طريقًا إلى اللّه عز وجل ، فقال : حتى أستأذن أستاذي ، فرجع إلى أبي سليمان الداراني فقال : تزوج بها فإنها ولية اللّه ، هذا كلام الصديقين ، قال : فتزوجتها ، فكان في منزلنا كِنٌّ من جص ففني من غسل أيدى المستعجلين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، وإسناده حسن « مجمع الزوائد (٢٢٤/٩) » .

للخروج بعد الأكل فضلًا عمن غسل بالأشنان [١] .. قال أحمد : وكانت تقول : كنت أدعو الله ﷺ أن يأكل مالي مثلك ومثل أصحابك [٢] .. قال أحمد : وكانت لها سبعة آلاف درهم فأنفقتها عليَّ ، فكانت إذا طبخت قدرًا قالت : كُلْها يا سيدي فما نضجت إلا بالتسبيح . وقالت لي : لست أستحل أن أمنعك نفسي وغيري ، اذهب فتزوج ، قال : فتزوجت ثلاثًا ، وكانت تطعمني اللحم وتقول : اذهب بقوتك ونشاطك إلى أهلك [٣] .

ولعل بعض النساء لا تملك مالًا تنفقه على زوجها ، أو تواسيه به ، لكنها تملك حسن التدبير لمعيشتها معه ، فتعوض هذا بذاك . كما فعلت هذه الفتاة المسلمة مع زوجها في بداية مشوار حياتها . ونقل قصتها الأستاذ/ عبد المتعال الجبري قائلًا : « اضطر فتى إلى اقتراض ثلاثين جنيهًا في احتفال زواجه - كان هذا في السبعينات - وأهمه الأمر حتى رأت عروسه ذلك في وجهه عقب زفافها إليه ، ولما كشفت الأمر خلعت سواريها وقالت : بعهما ، واجعل دينك عندي بدلًا من الآخرين ، واستجاب لرغبتها ، وأعطاها من مرتبه ثلثيه ، وجعل لنفسه الثلث . وأخذت

(١) إحياء علوم الدين - (٢/٥٤ ، ٥٣) .
(٢) ذكر النسوة المتعبدات - لأبي عبد الرحمن السلمي - (ص٥٩) .
(٣) صفة الصفوة - (٤/٣٠٢) .

الزوجة توفر من مصروف المنزل ، وهو يوفر من مصروفه ، حتى إذا اكتمل معه ثمن سوارين أخذها إلى الصائغ فاشترى لها سوارين أعجباها ، فقالت : هيا إلى الساعاتي لنرى ساعة جميلة ، وهناك فوجئ بأنها تدفع ثمنًا لساعة رائعة ، وتأخذها وتقلده إياها قائلة : مبارك ، كل يدبر من أجل لحظة يسعد فيها الآخر [1] .

٤ - تحفظه في نفسها وماله عند غيبته :

من صفات المرأة الصالحة التي أخبر عنها النبي ﷺ في أحاديثه المتعددة أنها تحفظ غيبة زوجها : « **وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله** » ، وهذه الصفة - أيضًا - أشار إليها القرآن الكريم حين قال : ﴿ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ ﴾ .

ولا أجد من قصص الصالحات ما يدل على ذلك أبلغ من قصة أم الإمام ربيعة بن عبد الرحمن - التي ذكرت طرفًا منها عند الحديث عن توجيه المرأة ابنها لطلب العلم - وهاأنذا هنا أذكرها بتمامها للدلالة على شيء آخر وهو حفظ المرأة لنفسها ولمال زوجها عند غيابه .

كان فروخ أبو ربيعة الرأي ، خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية ، وربيعة حَمَل في بطن أمه ، وخلّف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار ، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة ، وهو راكب فرسًا ، وفي يده رمح ، فنزل ،

(١) المرأة في التصور الإسلامي - (ص١٠٠) .

ودفع الباب برمحه . فخرج ربيعة . وقال : يا عدو الله ! أتهجم على منزلي ؟! فقال فروخ : يا عدو الله ! أنت دخلت على حرمي ! فتواثبا ، حتى اجتمع الجيران . وبلغ مالك بن أنس ، فأتوا يعينون ربيعة ، وكثر الضجيج ، وكل منهما يقول : لا فارقتك ، فلما بصروا بمالك سكتوا . فقال مالك : أيها الشيخ ! لك سعة في غير هذه الدار ، فقال الشيخ : هي داري ، وأنا فروخ .. فسمعت امرأته كلامه ، فخرجت وقالت : هذا زوجي ، وهذا ابني الذي خلفه وأنا حامل به فاعتنقا جميعًا وبكيا ، ودخل فروخ المنزل وقال : هذا ابني ؟! قالت : نعم ، قال : أخرجي المال الذي عندك ، قالت - تُعرّض - : قد دفنته وأنا أخرجه ؛ ثم خرج ربيعة إلى المسجد النبوي ، وجلس في حلقته . فأتاه مالك والحسن وأشراف أهل المدينة وأحدق الناس به . فقالت أمه لزوجها فروخ : اخرج فَصَلِّ في مسجد رسول الله ﷺ ، فخرج ، فنظر إلى حلقة وافرة ، فأتاها ، فوقف عليها ، فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره ، وعليه قلنسوة طويلة . فشك أبوه فيه . فقال : من هذا الرجل ؟ فقيل : هذا ربيعة ابن أبي عبد الرحمن ، فقال : لقد رفع الله ابني ؛ ورجع إلى منزله . وقال لوالدته : لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحدًا من أهل العلم والفقه عليها . فقالت أمه : فأيهما أحب إليك : ثلاثون ألف دينار ، أو هذا الذي هو فيه ؟

فقال : لا والله ، بل هذا ؛ فقالت : أنفقت المال كله عليه ، قال : فوالله ما ضيعته [(١)] .

فقد حفظت أم ربيعة نفسها ومالها طوال هذه المدة الطويلة التي غابها زوجها ، وأنفقت المال على تربية الولد حتى صار صاحب المكانة المعروفة بين العلماء .. هذا وإن كان ما فعله أبو ربيعة (فروخ) لا يجوز شرعًا من ترك زوجته هذه المدة الطويلة خاصة بعد أن ضرب سيدنا عمر ابن الخطاب ﷺ مدة ستة أشهر للجند يبتعدون فيها عن زوجاتهم ، لا يزيدون على ذلك .

روى الإمام مالك رحمه الله عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه
وأرقني ألا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله أني أراقبه
لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها : « كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ » فقالت : ستة أشهر ، أو أربعة أشهر ؛ فقال عمر : « لا أحبس أحدًا من الجيش أكثر من ذلك » [(٢)] .

(١) ذكر القصة ابن خلكان في « وفيات الأعيان » نقلًا من منهج التربية النبوية للطفل - (١/٧٦ ، ٧٧) .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه - باب الغازي يطيل الغيبة عن =

ومع ذلك فقد صبرت الزوجة ، ولم ترفع أمرها للقضاء ، وتمسكت بدينها ، وتفرغت لتربية ولدها حتى عاد زوجها .

٥ - لا تفشي سره :

من الآداب التي ربى الإسلام عليها أتباعه حفظ السر ، فالكلمة إذا خرجت من فم المسلم لا تتجاوز أذن أخيه إلى غيره مهما كانت صغيرة ، فقد أصبحت أمانة عنده .

يقول النبي ﷺ : « **إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة** » (١) .

وخاصة فيما يكون بين الزوجين من الأمور الخاصة ، والعلاقات الزوجية .

يقول ﷺ : « **إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة ، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها** » (٢) .

وقد وعت المسلمة الصالحة هذه التوجيهات النبوية والتزمت بها في حياتها العامة مع الناس ، وحياتها الخاصة مع زوجها ، فحفظت لسانها من الثرثرة ، وصانت بيتها من أن تلوكه ألسنة الناس .. وإليك مثال نادر على ذلك من

= أهله - (٢/ ٢١٠) ؛ وعبد الرزاق في مصنفه - (١٠٣/٧) .

(١) سنن الترمذى - كتاب البر والصلة - باب ما جاء أن المجالس أمانة ، وقال : حديث حسن ؛ وأبو داود في سننه - كتاب الأدب - باب في نقل الحديث .

(٢) صحيح مسلم - كتاب النكاح - باب تحريم إفشاء سر المرأة .

حياة المسلمة الصالحة :

ذكر الإمام ابن الجوزي في (صفة الصفوة) أنه كان ببغداد رجل بزاز (يبيع الثياب) فبينما هو في حانوته (دكانه) أقبلت إليه صبية فالتمست شيئًا تشتريه ، فبينما هي تحادثه كشفت وجهها في خلال ذلك ، فتحير وقال : قد والله تحيرت مما رأيت ، فقالت : ما جئت لأشتري شيئًا ، إنما لي أيام أتردد إلى السوق ليقع بقلبي رجل أتزوجه ، وقد وقعت أنت بقلبي ولي مال ، فهل لك في التزوج بي ؟ فقال لها : لي ابنة عم وهي زوجتي ، وقد عاهدتها ألا أغيرها ، ولي منها ولد ، فقالت : قد رضيت أن تجيء إليَّ في الأسبوع نوبتين ؛ فرضي وقام معها فعقد العقد ، ومضى إلى منزلها فدخل بها .. ثم ذهب إلى منزله فقال لزوجته : إن بعض أصدقائي قد سألني أن أكون الليلة عنده ؛ ومضى فبات عندها ، وكان يمضي كل يوم بعد الظهر إليها .. فبقي على هذا ثمانية أشهر ، فأنكرت ابنة عمه أحواله ، فقالت لجارية لها : إذا خرج فانظري أين يمضي ؟ فتبعته الجارية ، فجاء إلى الدكان ، فلما جاء الظهر قام ، وتبعته الجارية - وهو لا يدري - إلى أن دخل بيت تلك المرأة ؛ فجاءت الجارية إلى الجيران فسألتهم عن هذه الدار ، فقالوا : لصبية قد تزوجت برجل تاجر بزاز ؛ فعادت إلى سيدتها فأخبرتها ، فقالت لها : إياك أن يعلم بهذا أحد ، ولم تظهر لزوجها شيئًا .. فأقام الرجل تمام السنة ثم مرض ومات ، وخلف

ثمانية آلاف دينار ، فعمدت المرأة التي هي ابنة عمه إلى ما يستحقه الولد من التركة وهو سبعة آلاف دينار فأفردتها ، وقسمت الألف الباقية نصفين ، وتركت النصف في كيس ، وقالت للجارية : خذي هذا الكيس واذهبي به إلى بيت المرأة ، وأعلميها أن الرجل مات وخلف ثمانمائة ألف دينار ، وقد أخذ الابن سبعة آلاف بحقه ، وبقيت ألف فقسمتها بيني وبينك ، وهذا حقك ، وسلميه إياها .

فمضت الجارية فطرقت عليها الباب ، ودخلت وأخبرتها خبر الرجل ، وحدثتها بموته ، وأعلمتها الحال فبكت ، وفتحت صندوقها وأخرجت منه رقعة ، وقالت للجارية : عودي إلى سيدتك ، وسلمي عليها عني ، وأعلميها أن الرجل طلقني وكتب لي براءة ، وردي عليها هذا المال ، فإني ما أستحق في تركته شيئًا ، فرجعت الجارية وأخبرتها بهذا الحديث [1] .

فهذه الزوجة الصالحة قد وقفت من زوجها موقفًا مليئًا بالدروس والعبر ، فقد تزوج عليها - وفي هذا لدى المرأة ما فيه - ولكنها تصرفت بحكمة فحافظت على سر زوجها لدرجة أنها لم تحدثه في ذلك ، فضلًا عن أن تشهر به أو تعلن عليه حربًا شعواء - كما يحدث من الكثيرات الآن - ثم قامت بعد وفاته بأداء حق الزوجة الأخرى في الميراث ،

---

(١) صفة الصفوة - (٥٣٣/٢ ، ٥٣٢) .

ولم تظلمها ، أو تنتقم منها ، وفي هذا عدل أيما عدل .. وقد قابلت المرأة الأخرى هذه المعاملة بأفضل منها فرفضت أن تأخذ ما ليس حقًا لها ، وأعلمتها بطلاقها منه قبل وفاته ، فرحمهما اللَّه من امرأتين صالحتين .

ثانيًا : حسن تربيتها لأولادها :

كما أدت المرأة الصالحة حق زوجها ، وأحسنت عشرته ، فقد قامت بتربية أولادها خير قيام ، حيث غرست فيهم العقيدة الصافية ، والأخلاق الفاضلة ، وأدبتهم على حب اللَّه ﷻ ، وحب نبيه ﷺ ، وفعل الطاعات ، وترك المعاصي ، والاستعداد للآخرة ، وعدم الانغماس في شهوات الدنيا وملذاتها .

وقد رأينا في الفصل السابق المرأة الصالحة وهي تحث أبناءها على طلب العلم ، وتُعِدّهم وتجهزهم إيمانيًا وظاهريًا لتحصيل العلوم .

من ذلك قول أم الإمام مالك بن أنس رحمه الله له وهو صغير : تعال ألبسك لباس العلم .. ، وقول أم سيدنا سفيان الثوري وهي تقول : إذا كتبت عشرة أحاديث فانظر هل تجد زيادة في مشيك وحلمك ووقارك ؟ وإلا فاعلم أنه يضرك ولا ينفعك .

وكذلك رأينا المرأة الصالحة وهي تحفظ زوجها في غيبته في أولاده من خلال أم سيدنا ربيعة بن عبد الرحمن -

شيخ الإمام مالك (رحمهما اللَّه) – .

وهنا أذكر بعض الوصايا والنصائح التي نصحت بها المرأة الصالحة أبناءها ، وحثتهم فيها على الإقبال على اللَّه ﷻ ، والاجتهاد في طاعته ، وحذرتهم فيها من البعد عنه ، واتباع الشيطان والهوى .

ذكر نوح الأسود أن امرأة من الصالحات سُمعت وهي تعظ ابنًا لها وتقول : ويحك يا بنيَّ ، احذر بطالات الليل والنهار فتنقضي مهلات الأعمار وأنت غير ناظر لنفسك ، ولا مستعد لسفرك .. ويحك يا بني ، ما من الجنة عوض ، ولا في ركوب المعاصي ثمن إلا حلول النار .. ويحك يا بني ، مهد لنفسك قبل أن يحال بينك وبين ذلك ، وجِد قبل أن يجِد الأمر بك ، واحذر سطوات الدهر وكيد الملعون عند هجوم الدنيا بالفتن ، وتقلبها بالعبر ، فعند ذلك يهتم التقي كيف ينجو من مصائبها .. ثم قالت : بؤسًا لك يا بنيَّ إن عصيت اللَّه وقد عرفته وعرفت إحسانه ، وأطعت إبليس وقد عرفته وعرفت طغيانه ! (١)

ونصحت معاذة بنت عبد اللَّه العدوية ابنتها من الرضاعة قائلة : يا بنية ، كوني من لقاء اللَّه ﷻ على خوف ورجاء ، فإنيَّ رأيت الراجي له محفوفًا بحسن الزلفى لديه يوم يلقاه ، ورأيت الخائف له مؤهلًا للأمان يوم يقوم الناس لرب

---

(١) صفة الصفوة – (٥٢٩/٢ ، ٥٣٠) .

العالمين .. ثم بكت حتى غلبها البكاء [١] .

ووصت إحدى العابدات ابنها وهو يريد السفر قائلة له : يا بني ، أوصيك بتقوى الله ، فإن قليلها أجدى عليك من كثير عقلك ، وإياك النمائم فإنها تزرع الضغائن ، وتفرق بين المحبين ، ومثل لنفسك ما تستحسنه من غيرك مثالًا ثم اتخذه إمامًا ، واعلم أنه من جمع بين الحياء والسخاء فقد استجاد الحلة : إزارها ورداءها [٢] .

هذه بعض النصائح والتوجيهات التي إن وزنت بالذهب وزنته ، وإن استقام عليها شبابنا سعدوا في دنياهم وآخرتهم ، وهي تبين ما يجب على الآباء والأمهات نحو أبنائهم وبناتهم من النصح والتوجيه والوصاية والترغيب فيما عند الله من العفو تارة ، والترهيب من عقابه تارة أخرى ، بهذا يقيمون هذا الجيل من غفوته ، ويدفعون به في وجوه أعداء الإسلام ليتم الله ﷻ النصر على أيديهم ، ولترتفع راية الإسلام بين سواعدهم .

هكذا برهنت المرأة الصالحة على صدق إيمانها بالله ﷻ ، وشدة تمسكها بطاعته ، وتنفيذ أوامره ونواهيه ، من خلال حسن معاشرتها لزوجها ، وسعيها لأن تكون من خير النساء عند الله ﷻ بقيامها بواجباتها نحو بيتها وأسرتها .

---

(١) السابق - (٢٣/٤) .

(٢) صفة الصفوة - (٣٩٣/٤) .

ثم بعد ذلك ينتقل الحديث بنا إلى علاقة المرأة الصالحة بمجتمعها وأمتها ، لنرى كيف استطاعت أن تؤدي ما عليها في هذا المجال ، كما أدت ما عليها نحو ربها وبيتها ، وهذا - بمشيئة الله ﷻ - من خلال الفصل القادم .

* * *

هكذا طريق الصالحات

الفصل الخامس

هكذا كان إنفاقها وعملها الصالح

هكذا كان إنفاقها وعملها الصالح

المرأة في المجتمع الإسلامى ليست كمًّا مهملًا ، ولا مجرد عدد يزيد به أعداد المسلمين ، ولا تقع على هامش الحياة فتتوارى خلف الحجب لا يُسمع لها صوت ، ولا يرى لها أثر ، كلا ، فقد ربى الإسلام المرأة على المشاركة الفعالة في أحداث المجتمع وما يتعرض له من نكبات ، وما ينزل به من حوادث ، فإن كانت ذات مال جاهدت بمالها وعملها الصالح - كما سنرى بمشيئة اللَّه تعالى في هذا الفصل - وإن كانت ذات لسان جاهدت بقولها المؤثر ، ووعظها الحكيم ، وإن احتيج إلى جهادها البدني خرجت في صفوف المجاهدين .

ومما يدل على مشاركة المرأة الفعالة في سد حاجات المجتمع ، وقيامها بالجهاد المالي الواجب عليها في دينها أن النبي ﷺ كان يأتي النساء في المناسبات العامة - كصلاة العيد وغيرها - يأمرهن بالصدقة والإنفاق في سبيل اللَّه ، والمشاركة المالية في أعباء المجتمع .

عن عبد الرحمن بن عابس سمعت ابن عباس ﷺ سأله رجل : شهدت مع رسول اللَّه ﷺ العيد أضحى أو فطرًا ؟ قال : نعم ، لولا مكاني منه ما شهدته - يعني من صغره - قال : خرج رسول اللَّه ﷺ فصلى ثم خطب ، ولم يذكر أذانًا ولا إقامة ، ثم أتى النساء فوعظهن وذكرهن وأمرهن

بالصدقة ، فرأيتهن يهوين إلى آذانهن وحلقهن يدفعن إلى بلال ، ثم ارتفع هو وبلال إلى بيته [١] .

ولم يعترض يومها أحد من المسلمين ، ولم يقل كما يظن البعض الآن : وما للمرأة ومشكلات المجتمع المادية والاقتصادية ؟!

كما أن المرأة على عهد النبي ﷺ لم تتعلل بكثرة أعبائها المادية ، بل تبرعت بزينتها وحليها صدقة للّٰه تعالى .

ومما يدل أيضًا على دعوة الإسلام للمرأة أن تشارك في سد حاجات المجتمع المادية أن النبي ﷺ دعا المرأة أن تجعل من بيتها بؤرة خير ونفع لما حولها من المجتمع ، فتتصدق من طعام بيتها غير مسرفة أو مفسدة .

قال ﷺ : « **إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم أجر بعض شيئًا** » [٢] .

فإن لم تستطع المرأة المسلمة لا هذا ولا ذاك ، فإن الإسلام يأمرها أن تعين زوجها على الإنفاق ، وتشجعه على الجهاد بالمال ، ولا تقف حجر عثرة في سبيل ذلك .

ولها في السيدة أم الدحداح رضي الله عنها الأسوة والمثل في

---

(١) صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب والذين لم يبلغوا الحلم .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب من أمر خادمه بالصدقة ولم يناوله بنفسه .

ذلك حينما تصدق زوجها بالبستان الذي كانت تعيش فيه مع أولادها ؛ ففرحت بذلك ، وخرجت بأولادها وهي راضية سعيدة بما فعله زوجها .

روى الإمام أحمد في مسنده عن سيدنا أنس ﷺ أن رجلًا قال : يا رسول اللّٰه ، إن لفلان نخلة وأنا أقيم حائطي بها ، فمُرْه أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها ، فقال له النبي ﷺ : « **أعطها إياه بنخلة في الجنة** » فأبى ؛ فأتاه أبو الدحداح فقال : بعني نخلتك بحائطي ، ففعل ، فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول اللّٰه ، إني قد ابتعت النخلة بحائطي ، قال : فاجعلها له ، فقد أعطيتكها ؛ فقال رسول اللّٰه ﷺ : « **كم عذق رداح لأبي الدحداح في الجنة** » قالها مرارًا ، قال : فأتى امرأته ، فقال : يا أم الدحداح ، اخرجي من الحائط فإني قد بعته بنخلة في الجنة ، فقالت : ربح البيع (أو كلمة تشبهها) [١] .

وقد استجابت المرأة الصالحة لدعوة الإسلام لها إلى المشاركة في أعباء المجتمع وسد حاجاته ، فكانت لها مواقف مشهودة ، وآثار محمودة في مجال العلم الصالح عن طريق الإنفاق في سبيل اللّٰه تعالى ، ووقف الأملاك والأموال على

---

(١) مسند الإمام أحمد ؛ مسند أنس بن مالك ، وقال الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح - (٣٢٤/٩) ، وقال الحاكم : حديث صحيح على شرط مسلم « المستدرك - (٢٤/٢) » .

عمل الخير والبر ، ونشر العلم ، وسد حاجات اليتامى والأرامل والفقراء والمساكين .

وقد ملئت صفحات التاريخ بنماذج وأمثلة كثيرة منهن ، لدرجة أنني لا أبالغ إن قلت : إنه لم يخل عصر من العصور من نساء صالحات منفقات مشاركات في العمل الصالح ، أسدين إلى مجتمعاتهن خدمات جليلة ، وقمن بأعمال فاضلة ، نرجو أن تكون في ميزان حسناتهن عند اللّٰه تعالى ، ومن هؤلاء :

١ - أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، أخت الخليفة الراشد الخامس سيدنا عمر بن عبد العزيز ﷺ ، وزوج الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان .

ومن كلامها الدال على حبها للخير والإنفاق في سبيل اللّٰه تعالى « إن اللّٰه ﷻ جعل لكل قوم نَهمة في شيء ، وجعلت نهمتي في البذل والإعطاء » واللّٰه للصلة والمواساة أحب إلي من الطعام الطيب على الجوع ، ومن الشراب البارد على الظمأ » .

وكانت تقول : « وهل ينال الخير إلا باصطناعه » .

وكانت تقول أيضًا : « ما حسدت [1] أحدًا قط على شيء

---

(١) الحسد هنا بمعنى الغبطة ، وهو ما حدّث عنه النبي ﷺ حين قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه اللّٰه مالًا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه اللّٰه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها للناس » .

إلا أن يكون ذا معروف ، فإني كنت أحب أن أشركه في ذلك » .

وكانت تقول كذلك : « أُف للبخل ، لو كان قميصًا ما لبسته ، ولو كان طريقًا ما سلكته » [١] .

وعن أحمد بن سهل قال : حدثني منصور مولى بني أمية ، قال : كانت أم البنين تعتق في كل جمعة رقبة ، وتحمل على فرس في سبيل الله ﷻ [٢] .

فانظري كيف جمعت هذه المرأة الفاضلة بين عدة أوجه للخير والإنفاق في آن واحد : فهي تعتق الرقاب في سبيل الله، وهي تجهز فرسًا لكي يغزو عليه جندي من جنود الإسلام .. ثم هي تدعو غيرها إلى الإنفاق بقولها وحكمتها .

٢ - زبيدة بنت جعفر ، زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد - رحمهما الله - ولدت بالموصل عام (١٤٩هـ) ، وتزوجت من الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وولدت له الأمين الذي تولى الخلافة بعده وتوفيت عام (٢١٦هـ) ، ودفنت ببغداد وعمرها (٧١) عامًا .

« ومن مواقفها - رحمها الله - أنه كانت لها مائة جارية يحفظن القرآن ، ولكل واحدة ورد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها كدويِّ النحل من قراءة القرآن .

وهي صاحبة (عين زبيدة) لسقاية أهل الحرم وحجيج

---

(١) أعلام النساء - (١/١٥٣) .

(٢) صفة الصفوة - (٤/٢٩٩) .

بيت الله الحرام .. ذكر الحافظ بن الجوزي أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية (القلة) عندهم بدينار ، وأنها أسالت الماء عشرة أميال نحرت خلالها الجبال (أي نحتت الجبال) حتى نقلته من الحل إلى الحرم ، وتسمى عين زبيدة ، وهي عين ماء بمكة جلبت إليها الماء من أقصى وادي نعمان شرقي مكة ، وكلفتها من النفقات ما يبلغ مليون وسبعمائة دينار .

قال ابن جبير في كلامه عن طريق الحج : وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة هي من آثار زبيدة بنت جعفر [١] .

وفي حياة هذه السيدة - رحمها الله - عدة دروس يجب على المسلمة أن تتوقف عندها ، فقد رزقها الله ﷻ نعمًا ثلاثة ، فلم تفتن بواحدة منها : رزقها الله ﷻ الجمال ، فقد كانت ذات جمال باهر ، ولذا لقبت بزبيدة لشدة بياضها ؛ ورزقها الله - تعالى - المال الوافر حتى كانت تنفق بالملايين ؛ ورزقها الله - جل في علاه - السيادة ، فكانت بنت خليفة وزوجة خليفة وأم خليفة .. وجعلت ذلك كله لله ، فكان يسمع من قصرها كدويِّ النحل من تلاوة القرآن .

وقد وجهت إنفاقها في مصرف لا يُبارى من كثرة ثوابه ، فقد سقت الماء ، وفي ذلك فضل أيما فضل ، وسقته

---

(١) انظر : البداية والنهاية للإمام ابن كثير - (١٠/٢٨٠ ، ٢٨١) .

في بيت اللّه الحرام ، والثواب فيه مضاعف ، وكان صدقة جارية لها بعد موتها ولنعم الصدقة الجارية ذلك ، فأنعم بها من محسنة قانتة عابدة .

٣ - خوندتتر بنت محمد بن قلاوون الحجازية .

قال عنها الأستاذ عمر رضا كحالة : « أميرة من ربات البر والإحسان ، أنشأت في مصر المدرسة الحجازية ، وجعلت بها درسًا للفقهاء الشافعية ، وعهدت به إلى شيخ الإسلام/ سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني ودرسًا للفقهاء المالكية ، وجعلت بها منبرًا يخطب عليه يوم الجمعة ورتبت لها إمامًا يقيم بالناس الصلوات الخمس ، وجعلت بها خزانة كتب ، وجعلت بجوار مدرستها مكتبًا لعدة من أيتام المسلمين ، وعيّنت لهم مؤدبًا يعلمهم القرآن الكريم ، وأجرت عليهم في كل يوم لكل منهم من الخبز النقي خمسة أرغفة ، ومبلغًا من الدراهم ، ويقام لكل منهم بكسوتي الشتاء والصيف ، وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يصرف منها لأرباب الوظائف »(١) .

ويستفاد من إنفاق هذه السيدة الفاضلة - رحمها اللّه - أنها وجهت إنفاقها في سد حاجة مهمة من حاجات المجتمع، وهي التعليم ، فأنشأت مدرسة ، وأوقفت عليها بعضًا من أملاكها ، وقامت برعاية الأيتام من صغرهم رعاية

(١) أعلام النساء - (٣٨٧/١) .

تعليمية من خلال تحفيظهم لكتاب الله تعالى ، وإطعامهم الطعام ، وتقديم الكسوة لهم .

وعملها هذا خير دعوة لمن يريد إصلاحًا لهذا الجيل ، وبناء نهضة إسلامية حديثة ، فلا يوجد مثل تعليم العلم النافع يؤدي إلى ذلك ، فجزاها الله خيرًا عما قامت به .

- زينب بنت محمد علي باشا (جد الأسرة المالكة بمصر) .

قال عنها الأستاذ عمر رضا كحالة : « من ربات البر والإحسان ، ولدت في القاهرة سنة (١٢٤٤هـ) ، وأوقفت على الأزهر أوقافًا عظيمة ، بلغ ريعها عشرين ألف جنيه ، ورتبت رواتب لمدرسي الفقه على المذاهب الأربعة .

وأما مبراتها فأكثر من أن ينتظر من فرد مهما وفرت ثروته ، فكانت تعول في الأستانة وحدها أكثر من أربعمائة أسرة من الفقراء والمساكين » [١] .

ومن خلال إنفاق هذه المرأة الصالحة ، يتبين لنا عظمة تشريع الوقف [٢] في الإسلام ، ذلك التشريع الذي سد به

---

(١) السابق - (٢/١١٢ ، ١١١) .

(٢) الوقف معناه في اللغة : الحبس ؛ وفي الشرع : حبس مال يمكن الانتفاع به ، مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح موجود ؛ انظر المجموع للإمام النووى - (١٦/٢٢٥) - الطبعة الأولى - دار الفكر - بيروت - سنة (١٩٩٦م) أو : حبس العين على ملك الواقف ، أو عن التمليك والتصدق بالمنفعة ؛ انظر « الإسعاف في أحكام =

الإسلام حاجات كثيرة في المجتمع ، وقد غفل عنه المسلمون في زماننا هذا .. فقد كانت أغراض الوقف تستوعب جميع الخدمات العامة في المجتمع وكان الواقفون - كأمثال هذه المرأة الصالحة - لا يتركون مجالًا من مجالات الخير إلا أوقفوا عليه جزءًا من أملاكهم .

إن الأمة الآن - برجالها ونسائها - أحوج ما تكون للرجوع إلى هذا الباب العظيم من أبواب التكافل الاجتماعي في الإسلام .

▪ - أما نموذج المرأة الصالحة الذي أختم به هذا الفصل ▪ فهو نموذج امرأة لم يحفظ لنا التاريخ تفاصيل حياتها ، ولا حتى اسمها ▪ وإن كانت آثار إنفاقها تملأ السمع والبصر للغادي والرائح في حي (شبرا) بالقاهرة .

هذه السيدة هي (الخازندارة) التي تحدث عن برها وإحسانها فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله فقال :

« أجيال كثيرة من علماء الأزهر الذين تخرجوا في كلية أصول الدين مدينون أدبيًا وماديًا لامرأة محسنة وقفت مالها للّٰه تعالى ، وأنشأت منه مؤسسات يتفجر الخير منها منذ عشرات السنين ▪ وسيبقى كذلك إلى ما شاء اللّٰه .. وأنا واحد من هؤلاء الذين نالهم هذا العطاء الدافق ▪ فقد

= الأوقاف » للإمام برهان الدين الحنفي - (ص٧) - طبعة دار الرائد العربي - بيروت - سنة (١٩٨١م) .

انتظمت بين طلاب هذه الكلية من نصف قرن أو يزيد ، وتلقيت الدروس من أفواه جملة من أكابر علماء الأزهر ، وقادة الفكر الإسلامي أتيحت لهم فرصة التعليم في قاعات المبنى الذي أنشأته الخازندارة - رحمها الله - ملحقًا بمسجدها الجامع الفخم .

لكن من هي الخازندارة التي بنت كليتنا ؟ .. لا ندري عنها شيئًا !

كانت الكلية للدراسات التي تؤهل للشهادة العالية ، أما الدراسات الأعلى فكانت تنشأ لها حلق داخل المسجد نفسه ، وهي حلقات صغيرة بطبيعتها ، ولا أزال أذكر منظر الشيخ / أمين خطاب الرئيس الثاني للجمعية الشرعية بمصر ، وهو يلقي الدروس في (علل الحديث) وكان رحمه الله رجلًا بكاء شديد الخشية لله يلتف حوله طلبته وكأنهم في صلاة خاشعة .. على أن أعداد الطلبة زادت هنا وهناك وربما الإحساس بضرورة البحث عن مكان أوسع ، وهنا سمعت من يقول : إنهم سوف يضمون مبنى الملجأ إلى الكلية ، ولم أع ما هنالك ، ثم أدركت أن السيدة المحسنة بنت ملجأ للأيتام يؤويهم ويغذوهم ويكسوهم ، وأرصدت لذلك من مالها ما يسع حاجة المحتاجين ، ولأمر ما لم تنفذ هذه الوصية ، وقال أحد الساخرين : لعله لا يوجد يتامى ! وأحسست أنا أن جملة من الأهداف النبيلة تضيع في فوضى التنفيذ ،

وسوء الرقابة ، وفقدان العلاقة بالله .

إن الواقفين فعلوا الكثير ، بيد أن المنفذين فرطوا وخانوا .. ولما كانت مصائب قوم عند قوم فوائد ، فقد انتقلنا نحن إلى مبنى الملجأ الخالي ، وتلقينا دروسنا في قاعاته الخالية .. وأعتقد أن السيدة التي أسدت الجميل لم ينقص ثوابها ذرة ، فقد أدت ما عليها ، وتقربت إلى الله جهدها .. وما فعله الآخرون بتراثها يلقاهم يوم اللقاء الأخير ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وفي أثناء تلقينا الدروس بمبنى الخازندارة ، بدأنا نسمع ضجيج بناء عمارة كبيرة ، فتساءلنا : ما هذا ؟ قالوا : مستشفى الخازندارة ! .. الحق أني دعوت من أعماق قلبي للمرأة الصالحة ، تبني معهدًا ومسجدًا وملجأ ومستشفى ! تنشر العلم وتحمي العبادة وتربي اليتامى وتداوي المرضى ! .. أي قلب زكي في صدر هذه المرأة التي أقرضت الله قرضًا حسنًا .. وادخرت عنده ما ينضر وجهها ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ .. الواقع أن النساء الصالحات كُثُر في تاريخنا ، ما بخلن بمال ولا وقت في سبيل الله ، وقد أدّين في صمت ما يعجز عنه الكثيرون ، ويستطيع الباحثون في بطون التواريخ أن يجدوا أسماء متوارية محرومة من

الشهرة ، لها عند اللّٰه مكانة رفيعة لا ينالها غيرهن .. رحم اللّٰه الخازندارة التي استودعت اللّٰه مالها ، وجاهدت في سبيله بتقديم الدواء للمرضى ، والزاد للجياع ، والعلم لطلابه ، وألهم الرجال والنساء أن يتأسوا بها » [1] .

هكذا رأينا المرأة الصالحة تشارك في جميع جهات الخير في المساجد ، والتعليم ، والمستشفيات ، وكفالة الأيتام ، وإعالة الأسر الفقيرة ... إلخ .. ولا تترك مجالًا في الخير إلا ساهمت فيه بقدر ، ورمت فيه بسهم .

وهي لم تكتف بالمشاركة المادية فقط ، إنما شاركت بجهادها اللساني : فأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر حين وجدت المجال لذلك وشاركت بجهادها البدني حين دعتها الظروف لذلك .. وتفصيل ذلك في الفصل القادم - بمشيئة اللّٰه تعالى - .

* * *

(١) المرأة في الإسلام - (ص٣٩ - ٤١) - طبعة مكتبة أخبار اليوم - د.ت .

هكذا طريق الصالحات

الفَصلُ السَادِسُ

هكذا كان جهادها وشجاعتها

هكذا كان جهادها وشجاعتها

أعلى ما يبرهن به المسلم - والمسلمة - على صدق إيمانه، وقوة يقينه، أن يبذل نفسه وروحه لله تعالى، فما الإيمان إلا التصديق بموعود الله ﷻ الذي وعد به المؤمنين على لسان رسوله ﷺ وهو الجنة، وما الجهاد في سبيل الله إلا أقصر الطرق للوصول إلى هذا الموعود ؛ قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

لذا كان المسلمون الأوائل صادقين مع أنفسهم حينما فهموا هذه الصفقة جيدًا، وعلموا ما وراءها من مكاسب جليلة، ونعم دائمة لا تفنى ولا تحصَى، فاسترخصوا كل ما بذلوه في سبيل الحصول على تلك المكاسب، فباعوا أنفسهم وأموالهم - التي هي من الله - لله، لكي يعوضهم عنها جنات عرضها السماوات والأرض .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله : « يخبر الله تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض

عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له ، ولهذا قال الحسن البصري وقتادة : بايعهم – والله – فأغلى ثمنهم » [١] .

ومن هنا استحق الجهاد أن يكون ذروة سنام الإسلام ، أي أعلى مرتبة فيه ، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ : « وذروة سنامه الجهاد » [٢] لأنه يدل على الإخلاص التام لله تعالى ، واليقين التام بما عند الله ﷻ .

ولأنه القوة الدافعة للدعوة الإسلامية نحو تعميم خيرها على البشر ، وهو الرصيد المستمر لها يجدد نشاطها ، ويظهر فاعليتها في الوجود ، ولولاه لضمر أثرها ، وانكمشت ، وأفسحت المجال لغيرها من الدعوات الباطلة .

وهذا أمر يؤيده واقع تاريخ أمة الإسلام ، فقد كان أثرها في الأمم ، ونشر العدل والرخاء والسعادة ، يتناسب دائمًا طردًا مع قوة جهادها وحركتها وبذلها وتضحيتها [٣] .

وليس معنى الجهاد في الإسلام مقصورًا على القتال بالسيف فقط ، كلا ، فإن العلماء عرّفوه بأنه « بذل الجهد والاجتهاد في إعلاء كلمة الله تعالى » أو كما قال الإمام ابن

(١) تفسير القرآن العظيم – (٣٧٤/٢) – مرجع سابق .

(٢) سنن الترمذي – كتاب الإيمان – باب ما جاء في حرمة الصلاة ، وقال : حديث حسن صحيح ، وسنن ابن ماجه – كتاب الفتن – باب كف اللسان في الفتنة .

(٣) الجهاد ميادينه وأساليبه – الدكتور/ محمد نعيم ياسين – (ص٧) – الطبعة الأولى – دار الوفاء – د.ت .

تيمية رحمه الله : « الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان » [١] .

ومن ثم تندرج تحته أنواع كثيرة منها ما يتعلق بما يجاهد به ، ومنها ما يتعلق بمن نجاهدهم .

فمن حيث ما يجاهد به ، هناك جهاد القلب والجنان ، وهناك جهاد اللسان والبيان ، وهناك جهاد السيف والسنان ، وهناك جهاد المال والإنفاق .

ومن حيث من نجاهد ، هناك جهاد النفس ، والشيطان والكفار ، والمنافقين ، والظالمين ، وأرباب البدع والمنكرات [٢] .

ويهمنا في الحديث عن جهاد المرأة المسلمة ، ما جاهدت به في سبيل الله تعالى ، وقد تحدثت في الفصل السابق عن جهاد المرأة الصالحة بمالها وإنفاقها ، ولا أستطيع - كما لا يستطيع أي باحث - أن أتحدث عن جهاد المرأة بقلبها ، فهذا مما لا يطّلع عليه إلا الله تعالى ، فيبقى معنا جهادها بلسانها في الدعوة إلى الله تعالى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجهادها بسيفها في الدفاع عن الحق ، ومقاتلة أعداء الله ، وهما موضوع حديثنا في هذا الفصل - بمشيئة

(١) الفتاوى الكبرى - (٢/٣٨٥) - الطبعة الأولى - دار المعرفة - بيروت - سنة (١٣٨٦هـ) .

(٢) انظر : زاد المعاد في هدى خير العباد - للإمام ابن القيم - (٢/٥٥ - ٥٨) - الطبعة الأولى - دار الريان - سنة (١٩٨٧م) .

الله تعالى – وأبدأ – وبالله التوفيق – فأقول :

أولًا : جهاد المرأة الصالحة بلسانها :

الدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مناط خيرية هذه الأمة، وموطن شرفها وعزتها في هذه الحياة، قال تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

وهو صفة من أخص صفات أهل الإيمان التي مدحهم الله ﷻ بها في كتابه ؛ قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وهو السبيل لحفظ الدين، وإقامة شعائره بين الناس، وحث الناس على طاعة الله تعالى، والبعد عن معصيته، وبهذا تنجو الأمة من العقاب الإلهي باللعنة والإهلاك .

قال ﷺ : « **إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه** » (١) .

---

(١) صحيح مسلم « وهذا لفظه » – كتاب الإيمان – باب كون النهي عن المنكر من الإيمان .

وقال ﷺ : « **والذي نفسي بيده ، لتأمرُنَّ بالمعروف ، ولتنهوُنَّ عن المنكر ، أو ليوشكَن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم** » (١) .

وهذا الشأن العظيم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام لا يجعل منه واجبًا على الرجال فقط - كما يظن البعض - ، كلا ، بل هو واجب على الرجال والنساء معًا ، كلٌّ على قدر علمه ومعرفته بما يأمر به وينهى عنه ، ومقدرته على الأمر والنهي .

ولذا وصف القرآن الكريم المؤمنين والمؤمنات بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقال :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وخاطب النبي ﷺ الرجال والنساء جميعًا بقوله : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** » (٢) .

---

(١) سنن الترمذي - كتاب الفتن - باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ، وقال : حديث صحيح ، وأبو داود - كتاب الملاحم - باب الأمر والنهي .

(٢) سنن الترمذي - كتاب الفتن - باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقال : حديث حسن .

فالمرأة تستطيع من خلال هذا الحديث أن تغير المنكر بين أولادها بيدها ، وكذا - إذا كانت مُعلِّمة - مع تلاميذها ، وتستطيع إن كانت داعية إلى اللَّه تعالى ، عالمة بالكتاب والسنة ، أن تغير المنكر بلسانها وبيانها ، ومن لم تكن هذه ولا تلك ، تستطيع أن تغير المنكر بقلبها ، بأن تهجر أهل المنكر ، ولا تتعامل معهم ، وبهذا تكون قد أدت ما عليها نحو هذا الواجب الشرعي .

وقد قامت المسلمات الصالحات عبر التاريخ الإسلامي ، بأداء هذا الواجب خير قيام ، فكان منهن من تقف في وجه الخلفاء والأمراء تذكرهم باللَّه تعالى ، وتبيِّن لهم وجه الصواب ، وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، وكان منهن من تعظ العامة ، وتذكرهم بطاعة اللَّه ﷻ ، وتحذرهم من معصيته .

والأمثلة والنماذج في هذا المضمار تجل عن الحصر .. ولنقف مع بعضهن في ذلك لكي نستفيد الدرس والعظة والعبرة :

١ - السيدة نفيسة رضي الله عنها مع أحمد بن طولون : هي السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، تزوجت من إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق رضي الله عنه ، وقدِمت إلى مصر مع زوجها فأقامت بها ، وكانت ذات مال ، فأحسنت إلى الناس والزمنى والمرضى وعموم الناس ، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير ، ولما ورد الشافعي مصر ، أحسنت إليه ، وكان ربما صلى بها في شهر

رمضان ، وحين مات أمرت بجنازته ، فأُدخلت إليها المنزل فصلت عليه ، وماتت ودفنت بمصر سنة (٢٠٨هـ) [(١)] .

ولما سكنت السيدة نفيسة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مصر ، هرع إليها أهل مصر يشكون من ظلم أحمد بن طولون ، فقالت : « متى يركب ؟ » قالوا : في غد ، فكتبت رقعة ، ووقفت بها في الطريق ، وقالت : « يا أحمد بن طولون » فلما رآها عرفها ، فترجل عن فرسه ، وأخذ منها الرقعة وقرأها ، فإذا فيها « ملكتم فأسرتم ، وقدرتم فقهرتم ، وخوّلتم فعسفتم ، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم ، هذا وقد علمتم أن سهام القدر نافذة غير مخطئة لاسيما في قلوبٍ أوجعتموها ، وأكباد جوعتموها ، وأجساد عريتموها ، فمحال أن يموت المظلوم ، ويبقى الظالم ، اعملوا ما شئتم فإنا صابرون ، وجوروا فإنا مستجيرون ، واظلموا فإنا إلى الله متظلمون ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] » فاستجاب وعدل لوقته [(٢)] .

فهنا نرى شجاعة هذه المرأة الصالحة في قول الحق ، والتذكير به ، وحسن عرضها له في كلمات مؤثرة تأخذ بالألباب ، وتقرع الأسماع ، وتُفزع النفوس ، ومع من ؟ مع أمير من الأمراء الذين حكموا الديار المصرية ، وقد كان - كما يصفه صاحب السير - صاحب عدل وبذل ولكنه

(١) البداية والنهاية - (١٠/٢٧٠) .

(٢) www.almoslim.net بتاريخ ٢٨/٤/١٤٢٥هـ .

جبار سفاك للدماء ، قال القضاعي : « أحصي من قتله صبرًا أو مات في سجنه ، فبلغوا ثمانية عشر ألفًا » (١) .

لذا يعد ما فعلته هذه السيدة الصالحة من أفضل الجهاد عند اللّه تعالى ، كما أخبر النبي ﷺ حين قال : « **أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان أو أمير جائر** » (٢) .

إلا أننا ينبغي أن نعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد له من شروط في الأمر والنهي ، وفي الآمر والناهي ، ومن شروطه : ألا يؤدي إلى منكر أعلى منه ، ومن ثم لا يتناسب أن يأمر الأمراء والسلاطين أي أحد من الرعية ، بل لابد أن يكون قد بلغ من العلم والتقوى والقدرة والمكانة بين الناس مبلغًا يسمع له الأمير ويطيع - كما فعلت السيدة نفيسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مع ابن طولون - فهي بمقامها وعلمها وعلو منزلتها تناسب أن تخاطب هذا الأمير ، لذا هرع أهل مصر إليها ، وكلمت هي ابن طولون ووعظته ، فأثرت موعظتها فيه ، وعاد عن المظالم التي كان يرتكبها .

ومما كتبته هذه السيدة الصالحة لهذا الأمير ، نتعلم كيف يكون الأمر والنهي متناسبًا مع من نأمره وننهاه ، فقد

---

(١) سير أعلام النبلاء - (١٣/٩٥ ، ٩٤) .

(٢) سنن أبي داود - كتاب الملاحم - باب الأمر والنهي ؛ والترمذي في سننه ، بنحوه ، - كتاب الفتن - باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، وقال : حديث حسن غريب ؛ والنسائي في سننه - كتاب البيعة - باب أفضل من تكلم بالحق عند إمام جائر .

استعملت أسلوب الوعظ والتذكير بالله والتخويف من عقابه يوم المنقلب في الآخرة ، دون سب أو شتم ، أو تجريح أو تهديد ؛ وهذا من أمثل الأساليب في مثل هذه المناسبة .

يقول الإمام الغزالي في إحيائه : « قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف ، وأن أوله التعريف » وثانيه الوعظ » وثالثه التخشين في القول ، ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة » والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الأوليان ، وهما التعريف والوعظ »[1] .

٢ - أما النموذج الثاني الذي أقدمه على جهاد المرأة الصالحة بلسانها فهو نموذج الداعية إلى الله تعالى ، وما أكثر الداعيات إلى الله تعالى في تاريخنا الإسلامي بدءًا من جيل الصحابة من أمثال أم المؤمنين عائشة ، وأم المؤمنين أم سلمة ، والسيدة أسماء بنت يزيد والسيدة أم سليم - رضي الله عنهنَّ - إلى عصرنا الذي نحيا فيه لم تنقطع النساء الصالحات عن أداء دورهنَّ في هذا المضمار ، وقد رأينا منهنَّ من خلال الفصول السابقة من تعلِّم الناس العلم ، ومن تلقي إليهم بالحكم ومن تساهم بمالها في حاجات المجتمع ، وكل هذه الأمور من الدعوة إلى الله تعالى .

وأما الداعية المسلمة التي سأقدمها كنموذج علمي على دعوة المرأة الصالحة إلى الله تعالى ، فهي السيدة زينب

---

(١) إحياء علوم الدين - (٣١٤/٢) .

الغزالي » وهي من المعاصرات اللاتي ما زلن على قيد الحياة ، وهذا ما دفع لاختيارها هنا لكي تكون نموذجًا حيًّا لما تحياه المرأة المسلمة في هذا العصر من مواجهات ومشكلات ، وعادات وتقاليد ، وأعراف وأفكار ؛ بجانب ما قدمته في مجال الدعوة إلى اللّٰه تعالى عبر ستين عامًا قضتها ما بين الخطابة والوعظ والكتابة والنشاط والسفر والتربية ، مما جعل من حياتها حياة مليئة بالدروس والعبر التي تنفع المرأة المسلمة التي تريد أن تكون لسان صدق ، ومشعل نور ، تأخذ بيد الناس إلى اللّٰه تعالى .

وسأكتفي بما سطره الداعية الإسلامي الشيخ/ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللّٰهُ عنها حين قال : « السيدة زينب الغزالي الجبيلي ذات تجربة رائدة في ميدانها ، عرفتها مساجد القاهرة – من نصف قرن – خطيبة قديرة ، ومدرسة ناشطة ، ومجاهدة مثابرة ، والسيدة زينب الغزالي امرأة أصلب معدنًا من رجال كثيرين » ولها طبع جريء ، وصراحة غلابة » وإخلاص عميق ، ولا تزال مع كبر السن تدرس وتؤلف » وعندما زرتها السنة الماضية (قبل وفاته رَحِمَهُ اللّٰهُ بعدة أعوام) كانت تشرح أسماء اللّٰه الحسنى ، وتجعل من دارها ملتقى للأخوات القائمات بأمر الدعوة الإسلامية » [1] .

أما برنامجها اليومي – كما تتحدث هي عن نفسها

(١) الداعية زينب الغزالي سيرة جهاد وحديث من الذكريات – (ص١٧) .

فتقول - : « أصلي الفجر ، ويكرمني الله ﷻ أحيانًا في أن أكون مستعدة للصلاة قبل الفجر ، فأصلي ركعتين ، وأستغفر اللّه تعالى ، حتى يؤذن المؤذن ، ولكن هذا قليل ، ولكن صلاة الفجر هي جزء من حياتي اليومية المستديمة ، وبعد صلاة الفجر ، أشتغل بالاستغفار والتسبيح والصلاة والسلام على رسول اللّه ﷺ ما يقرب من ساعة ، وبعد ذلك أسمع أخبار العالم ، ثم أعيش مع عظمة القرآن الكريم ، ومع الأحاديث النبوية حتى يأخذني النوم ، فأنام ساعة أو ساعتين ، ثم أقوم إلى مكتبي ، ثم أصلي ركعتي الضحى بعدها ، ولا أفارق مكتبي إلا للصلاة أو لموعد خارج البيت ، وكل مواعيدي خارج البيت في مصلحة الدعوة » (١) .

وهكذا تعطينا هذه الداعية عدة دروس في الدعوة إلى اللّه تعالى ، منها :

١ - التنوع في مجالات الدعوة من الخِطابة ، إلى الكتابة ، إلى التدريس ... إلخ .

٢ - النشاط وعلو الهمة مهما كانت الأحوال ، ومهما تقدم السن ، وكيفما كانت العقبات والأزمات .

٣ - يوم الداعية كله لمصلحة الدعوة .

(١) الداعية زينب الغزالي سيرة جهاد وحديث من الذكريات - (ص ١١) - إعداد ابن الهاشمي - طبعة دار الاعتصام - د.ت .

بعد ذلك ننتقل إلى النوع الثاني من أنواع جهاد المرأة ، وهو جهادها بنفسها وبدنها دفاعًا عن عقيدتها وأمتها .

ثانيًا : جهاد المرأة الصالحة بيدها .

الأصل في القتال في الإسلام ، أنه فرضُ كفايةٍ . لكنه قد يكون فرضَ عينٍ ، وذلك :

١ - إذا دهم العدو بلدًا من البلدان ، فيجب على كل من فيها من الرجال والنساء - وجوبًا عينيًا - أن يدفعوا عن بلدهم ذلك العدو .

٢ - إذا استنفر الإمام النفير العام لكل الناس ، فلا يجوز أن يتأخر رجل أو امرأة عن الاستجابة والخروج للجهاد .

٣ - إذا عيَّن الإمام شخصًا معينًا - رجلًا كان أو امرأة - للخروج للجهاد ، فلا يجوز لمن تعينّ عليه أن يتأخر عن الخروج .

في هذه الأحوال . يصبح الجهاد فرضَ عينٍ على الرجل والمرأة بدون استئذان من زوج ، أو أب ، أو أم ، أو نحوهم .

وقد فهمت المرأة الصالحة هذا الحكم الشرعي ، فلم تتأخر عن الخروج للقتال في سبيل اللَّه تعالى حين تعين عليها ذلك ، بل خرجت في بعض الأحيان مع بعض الجيوش في مهام أخرى غير القتال في سبيل اللَّه ، إلا أنها تخدم هذا الهدف الأسمى من أهداف الإسلام كمداوة الجرحى ، وسقاية العطشى . وإعداد الطعام للمقاتلين في سبيل اللَّه .

يقول الدكتور/ طلعت عفيفي : « لقد اشتهر جهاد الصحابيات في الدفاع عن الإسلام ، وهو ما حمل الإمامين البخاري ومسلم على إفراد العديد من الأبواب للدلالة على ذلك ، ومن هذه الأبواب في صحيح البخاري : باب جهاد النساء ، وباب غزو المرأة في البحر ، وباب غزو النساء وقتالهن مع الرجال ، وباب مداوة الجرحى في الغزو ، وباب حمل النساء القرب في الغزو ... إلخ .

ومنها في صحيح مسلم : باب غزوة النساء مع الرجال ، وباب النساء الغازيات »[1] .

ولم يقتصر الأمر على الصحابيات فقط ، بل اقتدى بهن نساء صالحات كثيرات من التابعيات إلى الآن ، فمن بواجب الدفاع والقتال بأنفسهن اقتداء بالسيدة نسيبة في أحد ، والسيدة صفية في الخندق ، والسيدة أسماء بنت يزيد في اليرموك ؛ ومنهن من أدت الواجبات الأخرى : كالعلاج ، والطعام ، اقتداء بالسيدة عائشة ، والسيدة أم سليم ، والسيدة أم عطية رضي الله عنهن .

وقد عطر التاريخ الإسلامي صفحاته بذكر نماذج وأمثلة كثيرة من هؤلاء المقاتلات الصالحات ، وأكتفي بذكر مثال واحد من القدماء منهن ، ومثال آخر من المحدثات .

أما من القدماء ، فهي السيدة خولة بنت الأزور ، وأما من

---

(١) صفحات مشرقات من حياة الصحابيات – (ص٨٨) .

المحدثات ، فهُن المجاهدات الفلسطينيات ، وذلك على النحو التالي :

أولًا : التابعية الجليلة خولة بنت الأزور :

ذكر الواقدي في كتابه (فتوح الشام) أنه : لما أسر الروم ضرار بن الأزور في موقعة أجنادين ، سار سيدنا خالد بن الوليد بمن معه من جند المسلمين لقتال الروم ، واستنقاذ ضرار ، فبينما يسير في الطريق إذ نظر إلى فارس مُعتقِل رمحه لا يبين منه إلا الحدق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوي على ما وراءه ، فلما نظر خالد قال : « ليت شعري !! من هذا الفارس ؟! وايم اللّه إنه لفارس » ؛ ثم اتبعه خالد والناس من ورائه حتى أدرك جند الروم ، فحمل عليهم ، وأمعن بين صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم حتى زعزع كتائبهم ، وحطم مواكبهم ، فلم تكن غير جولة جائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء ، وقد قتل رجالًا وجندل أبطالًا ، ثم عرّض نفسه للموت ثانية فاخترق الصفوف غير مكترث ، وظنه أناس خالدًا ، حتى إذا قدم خالد قال له رافع بن عميرة : من الفارس الذي تقدم أمامك ، فلقد بذل نفسه ومهجته ؟ فقال خالد : « واللّه لأنا أشد إنكارًا وإعجابًا لما ظهر من خلاله وشمائله » ؛ وبينما القوم في حديثهم ، خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب ، والخيل تعدو في أثره ، وكلما اقترب أحد منه ألوى عليه فأنهل رمحه من صدره ، حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به وناشدوه كشف اسمه ورفع لثامه ،

وناشده ذلك خالد - وهو أمير القوم وقائدهم - فلم يحر جوابًا ، فلما أكثر خالد أجابه وهو ملثم ، فقال : « أيها الأمير ، إني لم أعرض عنك إلا حياء منك ، لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور ، وإنما حملني على ذلك أني محرقة الكبد ، زائدة الكمد » فقال خالد : « من أنت ؟ » قالت : « أنا خولة بنت الأزور ، كنت من نساء قومي ، فأتاني آت بأن أخي أسير ، فركبت وفعلت ما رأيت » ؛ هنالك صاح خالد في جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة ، وعظم على الروم ما نزل بهم منها فانقلبوا على أعقابهم ، وكانت تجول في كل مكان علها تعرف أين ذهب القوم بأخيها ، فلم تر له أثرًا ، ولا وقفت له على خبر ، على أنها لم تزل على جهادها حتى استنقذ لها أخوها [١] .

ومن مواقفها الرائعة : موقفها يوم أسر النساء في معركة حول دمشق ، فقد وقفت في النساء ، وكانت قد أسرت معهن ، فأخذت تثير نخوتهن ، وتضرم نار الحمية في قلوبهن ، ولم يكن من السلاح شيء معهن ، فقالت : لنأخذ أعمدة الخيام ، وأوتاد الأطناب ، ولنحمل على هؤلاء اللئام ، فلعل اللّه ينصرنا عليهم ، فتناولت كل واحدة عمودًا من عمد الخيام ، وصحن صيحة واحدة ، وألقت خولة على

(١) انظر فتوح الشام للواقدي - (٤١/١ - ٤٧) - طبعة دار الجيل - بيروت - د.ت .

عاتقها عمودها وتتابع النساء وراءها ، فقالت لهن خولة : « لا ينفك بعضكن عن بعض وكنِ كالحلقة الدائرة ، ولا تتفرقن فتملكن ، فيقع بكن التشتيت ، واحطمن رماح القوم ، واكسرن سيوفهم » ؛ وهجمت خولة ، وهجم النساء وراءها ، وقاتلت بهن قتال المستيئس المستميت ، حتى استنقذتهن من أيدي الروم ، وخرجت وهي تقول :

نحـن بنـات تبـع وحـمـير
وضربنا في القـوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسـعر
اليوم تسقون العذاب الأكبر [١]

وكأني بالسيدة خولة رضي الله عنها تتشبه بالسيدة صفية عمة النبي ﷺ حين قتلت اليهودي بعمود خيمتها في غزوة الخندق ، فهن ذرية بعضها من بعض ، نبتن على الغيرة على العرض ، وعدم الرضا بالهوان والذل ، والتضحية بالنفس في سبيل الحق .

والحمد لله لم تنقطع تلك الشجرة المباركة من الصالحات المجاهدات عن الثمار إلى يومنا هذا ، فهناك في فلسطين ، والعراق ، وأفغانستان ، والشيشان ، وكشمير ... إلخ ، وفي كل مكان تراق فيه دماء المسلمين مَن على

---

(١) السابق – (١/٥٢ – ٥٥) « بتصرف واختصار » .

صفية ، والخنساء ، وخولة بنت الأزور ، يؤدين واجبهن في الدفاع عن الإسلام إما بالتضحية بأنفسهن من خلال العمليات الاستشهادية ، وإما بمساعدة المجاهدين والوقوف بجانبهم .

وكل يوم نسمع فيه عن شهيد يقدم نفسه فداء لدينه ، يجب أن نعلم أن وراءه أمًّا ، أو أختًا ، أو زوجة حثته على ذلك ، ووقفت وراءه حتى نال الشهادة ، فضلًا عمن نسمع عنهن وهن يقمن بعملياتهن الاستشهادية في صدر العدو .

وأخص بالحديث الاستشهاديات الفلسطينيات ، وهن على الترتيب :

١ - وفاء إدريس من رام الله أول امرأة فلسطينية تنفذ أول عملية استشهادية في القدس الغربية قتل فيها إسرائيلي ، وجرح مائة وعشرون آخرون .

٢ - دارين أبو عيشة الطالبة بكلية الآداب جامعة النجاح التي نفذت عملية على مشارف القدس بالقرب من حاجز (مكاييم) ، وقد أصيب فيها ثلاثة من رجال الوحدة الخاصة في شرطة الحدود الإسرائيلية .

٣ - آيات الأخرس من مخيم (الدهيشة) التي نفذت عملية في القدس الغربية ، قتل فيها ثلاثة إسرائيليين ، وجرح سبعون آخرين .

٤ - إلهام الدسوقي التي فجرت نفسها أثناء اقتحام

قوات الاحتلال منزلها في مخيم جنين ، وقد أسفرت العملية عن مقتل ضابطين ، وجرح عشرة آخرين .

٥ - عندليب خليل طقاطقة ذات العشرين عامًا ، والتي كانت تعمل في مشغل لمساعدة أسرتها ، وفي يوم استشهادها خرجت كعادتها من البيت ، إلا أنها عادت من على الباب ، وقد علت وجهها ابتسامة عريضة ، وقالت لأمها : « هذا المساء سيأتي أناس لكي يطلبوا يدي منك ، فأرجو أن تحتفي بهم بما يليق بمنزلتي عندك » ابتسمت أمها ، ولم تأخذ كلامها مأخذ الجد ، وفي المساء قامت عندليب بتفجير نفسها على مدخل سوق (محني يهودا) أكبر سوق شعبي لليهود في القدس الغربية ، وأصابت أكثر من خمسة وتسعين إسرائيليًا ، وكادت تقتل رئيس بلدية الاحتلال في القدس (الليكودى المتطرف) إيهود أولمرت .

٦ - ريم الرياشي وهي أول امرأة فلسطينية متزوجة ولديها طفلان (ولد وبنت) البنت في الثالثة من عمرها ، والولد في العام الثاني من عمره ، تقوم بعمليتها عند معبر (بيت حانون) يسفر عن مقتل أربعة جنود ، وإصابة عشرة ، أربعة منهم في حالة خطيرة [١] .

ومازالت النساء الفلسطينيات يتتابعن في ركب الشهداء نحو الجنة .

---

(١) إسلام أون لاين نت - قطاع الأخبار - الاستشهاديات الفلسطينيات .

أما المرأة التي تستحق أن أسجل حياتها هنا للعبرة والعظة، فهي السيدة/ أم نضال، خنساء فلسطين، تلك الأم التي ربت أبناءها على حب الاستشهاد في سبيل الله، ونذرتهم لله تعالى، وجهزتهم إلى الجنة صابرة محتسبة أجرها عند الله ﷻ، ولم تكتف بذلك، بل كانت تأوي المجاهدين داخل بيتها، وتخدمهم بنفسها، تعالوا بنا نرى من هي خنساء فلسطين تلك ؟!

أم نضال فرحات : امرأة من فلسطين، نذرت أولادها الستة لله ﷻ منذ ما يزيد عن عشرة أعوام، وقتلت الخوف فيها، حيث دفعت بثاني أبنائها للالتحاق بكتائب الشهيد عز الدين القسام، والقيام بتنفيذ عملية استشهادية في قلب تل أبيب، ولكنه تم القبض عليه قبل تفجير الشاحنة التي كان يستقلها، كما آوت الشهيد : عماد عقل، واستشهد في منزلها بعد أن خاض معركة مع ما يزيد عن مائتي جندي صهيوني في (٢٤) من فبراير سنة (١٩٩٣م) .

تقول **أم نضال** عن ذلك : « كنت كثيرًا ما أسمع عن وضع الشباب المطاردين من جيش الاحتلال، وكيف لا يشعرون بالأمن في بيوت مستضيفيهم، فصممت أن أفوز بشرف إيوائهم، فاقترحت على ابني الأكبر (نضال) أن نحفر خندقًا خلف المنزل وتحت حظيرة الحمام، ليصبح مأوى الشباب المطاردين، وفعلًا لاقت هذه الفكرة ترحيبًا من زوجي وابني، فأعددنا الخندق، وعرضت الأمر على

شباب المقاومة الذين كنا نعرفهم ليكرمنا اللّه بشرف خدمة المجاهد عماد عقل » .

أم نضال ، هي التي دفعت ابنها محمد للمشاركة في اقتحام مستوطنة صهيونية ، وقتل مستوطنيها المحتلين رغم صغر سنه ، بعد أن نمَّت الجرأة في قلبه وهي تقول له : « أريد أن تقاتل بالسلاح لا بالحجر » لذلك سرعان ما فكر في البحث عن عمل ليدخر منه ثمن السلاح ، وتضيف أم نضال : « كان من أجمل أيام حياتي عندما امتلك محمد السلاح ، فأحضره لي ليسعد قلبي به ، ويؤكد لي أنه أصبح رجلًا يمكن أن يسير في طريق المناضل الشهيد (عماد عقل) أحد قادة كتائب عز الدين القسام ، علمتُه من البداية أن يكون صادقًا معي ، ولا يخفي عني سر جهاده ، حتى أشجعه وأقويه ، ومع حلول شهر رمضان الماضي (١٤٢٢هـ) ، بشرني بالتحاقه بكتائب القسام ، وأنه يستعد لخوض عملية استشهادية ؛ لا أنكر أني جزعت في البداية ، لأني أيقنت أني أعد الأيام الأخيرة لولدي الخامس، ولكن ما كان يزيد من فزعي أن يفشل في المعركة ، أو أن يتم القبض عليه قبل أن ينفذها كما حدث مع أخيه ، فدعوت اللّه أن يقبله عنده شهيدًا بعد أن يشفي صدور قوم مؤمنين ، وقبل الشروع في العملية ، أخبرني ابني محمد بأنه يوجد خلاف حول من سينفذ العملية ، وأنه

سيجرى قرعة بينه وبين صديقه : محمد حسن ، فسارعت وأرسلت إلى قادة العملية أؤكد لهم أني أرشح ابني لنيل الشهادة وشرف الجهاد ؛ ونجحت في كبح جماح مشاعر الأمومة بداخلي ، فمن أراد طريق الله والفوز بالجنان ، فلابد أن يدفع أغلى ما يملك ، وابني محمد أغلى ما أملكه » .

وتصف أم نضال الساعات الأخيرة قبل استشهاد ولدها ، فتقول : « أخبرني قبل أسبوع بأن الموعد تحدد لتنفيذ العملية ، وأخذ يصف لي بعض تفاصيلها العريضة حتى لا أجزع عند استشهاده ، ولم أستطع عندها أن أتمالك دموعي ، وغلبتني عاطفة الأمومة ، وبكيت أمامه ، ولكني قلت له : إياك أن تصدق دموعي ، فإنها دموع أم تزف ابنها إلى الحور العين ، فأطع ربك وجاهد ، واثبت حتى تلقى ربك ، ولا تقطع اتصالك الهاتفي معنا .. ويوم تنفيذ العملية ودعته ، وخرج إلى جنوب غزة بعد أن ودع جميع إخوانه ، وبقيت أنتظر اتصاله وقلبي يدعو له بالسداد ، حتى جاء وقت الصفر (الساعة الخامسة مساء) فأخبرني أنه سيقتحم المستوطنة الآن ، وسيغلق الجوال ، وأن هذا آخر عهدنا به » .

وتضيف بنبرة حزينة : « وبدأت أخوض الامتحان الحقيقي ، صراعًا بين المبادئ وعاطفة الأمومة .. ست ساعات كأنها دهر طويل أعد خلالها أنفاسي كأم تشاهد الموت البطيء لابنها ، وقلبي يخفق حتى أوشك على

شباب المقاومة الذين كنا نعرفهم ليكرمنا اللّٰه بشرف خدمة المجاهد عماد عقل » .

أم نضال ، هي التي دفعت ابنها محمد للمشاركة في اقتحام مستوطنة صهيونية ، وقتل مستوطنيها المحتلين رغم صغر سنه ، بعد أن نمَّت الجرأة في قلبه وهي تقول له : « أريد أن تقاتل بالسلاح لا بالحجر » لذلك سرعان ما فكر في البحث عن عمل ليدخر منه ثمن السلاح ، وتضيف أم نضال : « كان من أجمل أيام حياتي عندما امتلك محمد السلاح ، فأحضره لي ليسعد قلبي به ، ويؤكد لي أنه أصبح رجلًا يمكن أن يسير في طريق المناضل الشهيد (عماد عقل) أحد قادة كتائب عز الدين القسام ، علمتُه من البداية أن يكون صادقًا معي ، ولا يخفي عني سر جهاده ، حتى أشجعه وأقويه ، ومع حلول شهر رمضان الماضي (١٤٢٢هـ) ، بشرني بالتحاقه بكتائب القسام ، وأنه يستعد لخوض عملية استشهادية ؛ لا أنكر أني جزعت في البداية ، لأني أيقنت أني أعد الأيام الأخيرة لولدي الخامس، ولكن ما كان يزيد من فزعي أن يفشل في المعركة ، أو أن يتم القبض عليه قبل أن ينفذها كما حدث مع أخيه ، فدعوت اللّٰه أن يقبله عنده شهيدًا بعد أن يشفي صدور قوم مؤمنين ، وقبل الشروع في العملية ، أخبرني ابني محمد بأنه يوجد خلاف حول من سينفذ العملية ، وأنه

سيجرى قرعة بينه وبين صديقه : محمد حسن ، فسارعت وأرسلت إلى قادة العملية أؤكد لهم أني أرشح ابني لنيل الشهادة وشرف الجهاد ؛ ونجحت في كبح جماح مشاعر الأمومة بداخلي ، فمن أراد طريق الله والفوز بالجنان ، فلابد أن يدفع أغلى ما يملك ، وابني محمد أغلى ما أملكه » .

وتصف أم نضال الساعات الأخيرة قبل استشهاد ولدها ، فتقول : « أخبرني قبل أسبوع بأن الموعد تحدد لتنفيذ العملية ، وأخذ يصف لي بعض تفاصيلها العريضة حتى لا أجزع عند استشهاده ، ولم أستطع عندها أن أتمالك دموعي ، وغلبتني عاطفة الأمومة ، وبكيت أمامه ، ولكني قلت له : إياك أن تصدق دموعي ، فإنها دموع أم تزف ابنها إلى الحور العين ، فأطع ربك وجاهد ، واثبت حتى تلقى ربك ، ولا تقطع اتصالك الهاتفي معنا .. ويوم تنفيذ العملية ودعته ، وخرج إلى جنوب غزة بعد أن ودع جميع إخوانه ، وبقيت أنتظر اتصاله وقلبي يدعو له بالسداد ، حتى جاء وقت الصفر (الساعة الخامسة مساء) فأخبرني أنه سيقتحم المستوطنة الآن ، وسيغلق الجوال ، وأن هذا آخر عهدنا به » .

وتضيف بنبرة حزينة : « وبدأت أخوض الامتحان الحقيقي ، صراعًا بين المبادئ وعاطفة الأمومة .. ست ساعات كأنها دهر طويل أعد خلالها أنفاسي كأم تشاهد الموت البطيء لابنها ، وقلبي يخفق حتى أوشك على

التوقف لشدة خوفي أن يتم القبض عليه ، وأخذت أدعو اللَّه أن ينعم عليه بالشهادة ويسدد رميته » حتى جاء فرج اللَّه بخبر نجاح العملية وفوزه بالجنان ، فهنأت نفسي ، وتنفست الصعداء »[١] .

هذه الخنساء التي تطل علينا من أرض فلسطين الصامدة ، تؤكد من جديد أن هذه الأمة لن تموت ، وأن الإسلام باق إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها مهما حاول أعداؤه أن ينالوا من أهله .

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة : ٣٢] .

فأين نحن من هذه المرأة ؟! وهل فينا معتصم آخر يهب لنصرة المسلمين والمسلمات ؟!

إن حياة أم نضال الفلسطينية تلقي على كواهلنا عبئًا كبيرًا نحو أولادنا ، ونحو تربيتهم على طاعة اللَّه ورسوله ، وعلى حب الجهاد في سبيل اللَّه تعالى .

إن أعظم درس نتعلمه من هذه المرأة كيف نحب أولادنا ؟ وكيف نسعى بهم إلى الجنة عن طريق تربيتهم تربية إسلامية صحيحة ؟ وكيف نفهم أن أولادنا ليسوا ملكًا

---

(١) نساء يعشقن الأقصى – إعداد محمود السباعي – (ص٤ – ٨) بتصرف واختصار – كتيب إصدار شركة إسراء – سنة (٢٠٠٢م) .

لنا ، وإنما هم أمانة عندنا يجب أن نصونها بما يحب خالقها ومالكها - جل في علاه - فنجعلهم يحيون للإسلام وبالإسلام ، ويسترخصون الموت في سبيل هذا الدين .

وهذا جهاد أيما جهاد ، جهاد التربية والإعداد للشباب المسلم ، لقادة الغد ، لحملة النور .. بهذا تسدي المرأة الصالحة أعظم خدمة لدينها ، وتعذر أمام ربها .

* * *

هكذا طريق الصالحات

الخاتمة

كيف تكونين كذلك في هذا العصر

كيف تكونين كذلك في هذا العصر ؟

أختاه .. بعد أن قطعنا شوطًا طويلًا مع أخواتك الصالحات في العقيدة ، والعبادة ، والأخلاق ، والفضائل ، والعلم ، والحكمة ، ومع الزوج والأولاد ؛ وفي بذل المال والنفس فداء لهذا الدين .

أعلم أن السؤال الذي يتردد داخلك الآن : كيف أكون مثلهن ؟ وكيف أسير على دربهن ، وأحقق بعض ما وصلن إليه حتى صرن مثلًا يحتذى به في جانب من جوانب الإسلام ؟

وقبل أن أجيبك على سؤالك هذا .. أؤكد لك - ما سبق أن نبهتك عليه في المقدمة - وهو أن ما تتمنينه ليس صعب المنال ، ولا مستحيل الوقوع ، ولا يقف العصر بظروفه وأحواله حائلًا بينك وبين ذلك ، كلا ، فقد رأيت أخواتك الصالحات المعاصرات ، وهن يسرن على الدرب ، ويواصلن الطريق - طريق الصالحات - على الرغم من أنهن عشن في زمانك ، وتعرضن لنفس ظروفك .

فلا تقدمي عذرك بين يدي عزيمتك حتى لا تضعف عزيمتك ، وتلين إرادتك ، فلا تنفع معك إجابة ، ولا يفيد معك قول .

كوني صادقة مع ربك أولًا ، ثم مع نفسك ثانيًا في قولك : كيف ؟ واعلمي أنك إن صدقت اللّه في ذلك ،

فسيصدقك اللّه بتوفيقه ومعونته ، وسيجعلك على طريق الصالحات ؛ وإليك الإجابة على سؤالك : كيف ؟

الإجابة - أختاه - تكمن - من وجهة نظري - في عنصرين أساسيين ، وهما :

أولًا : أن تعرفي من أنت ؟

ثانيًا : أن تحددي هدفك في الحياة .

وذلك على النحو التالي :

أولًا : أن تعرفي من أنت ؟ :

كثير من الناس يحملون أسماء وألقابًا لا يعرفون مغزاها ، ولا يقفون عند معناها ، ولا تعدو عندهم أن تكون صفة ولدوا عليها لا تقدم بالنسبة لهم ولا تؤخر ، ولا تؤثر من قريب أو بعيد في حياتهم .

وأوضح ما يكون ذلك عند بعض المنتسبين لهذا الدين ، الذين ولدتهم أمهاتهم في هذه الحياة ، فوجدوا أنفسهم مسلمين ، فلم يكلفوا أنفسهم أن يسألوا عن معنى هذه الصفة ، وما الفرق بينها وبين غيرها من الصفات الأخرى التي تكتب في هذه (الخانة) في شهادة الميلاد ؟

وهذه من المصائب الكبرى ، والفدائح العظمى التي ابتلي بها الإسلام في هذا العصر ، حتى حُسب عليه من لا يعرفه ، ولا يفهم معناه ، فكثر الكم ، وقل الكيف ، وزادت الإبل ، وقلت الرواحل ، كما أخبر النبي ﷺ عن ذلك

فقال : « ثم تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة » (١) .

لذا أدعوك أن ترتبئي بنفسك أن تكوني من هؤلاء ، أو تنتسبي إليهم وأدعوك أن تفهمي أن معنى الإسلام الحقيقي هو : الاستسلام الكامل ، والخضوع التام للّه - جل وعلا - وتحقيق العبودية له - وحده جل في علاه - والتبرؤ من جميع الأنداد والأضداد التي تعكر هذا الاستسلام والخضوع من الهوى ، والعقل ، والأعراف ، والتقاليد ، ونظرة المجتمع ... إلخ .

فأنت لست أمة عند كل هؤلاء ، ولا عند واحد منهم ، كلا ، إنما أنت أمة للّه - وحده - فقط ، فإذا وقف كل هؤلاء في سبيل تنفيذك لأمر اللّه ، يجب أن تعصيهم ، وتطيعي اللّه تعالى ، وإذا أمروك بما يغضب اللّه ﷻ يجب ألا تسمعي لهم ، وألا تطيعيهم .

وليس ذلك في الشعائر التعبدية (الصلاة والزكاة والصيام والحج) فقط ، كلا ، إنما في كل صغيرة وكبيرة في حياتك .

فاللّه ﷻ لم يخلقك لأجل هذه الأركان فحسب ، وإنما خلقك لكي تحققي العبودية له في كل لحظة من لحظات

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب قوله ﷺ : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » .

حياتك ، وفي كل لحظة من هذه اللحظات تمرين بامتحان في هذا المعني لكي تعلمي هل أنت حقًّا على طريق العبودية للَّه تعالى ، أم أن قدمك زلت عن الطريق ؟

إن سخرية الناس من حجابك امتحان لك في العبودية والاستسلام للَّه تعالى .. إن علاقتك بزوجك وأولادك امتحان لك في ذلك أيضًا .. إن كلام النساء معك ، وحملهن إياك على سماع الغيبة والمشاركة في النميمة امتحان لك كذلك .. وهكذا في كل شؤونك يجب أن تبرهني على إسلامك ، وتعلني عن شخصيتك الإسلامية المتميزة باستجابتك لأمر اللَّه تعالى ، وتمسكك بشرعه ، كما فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما دعاه اللَّه إلى الإسلام فأسلم ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ ، ١٣١] .

ثم ابتلاه اللَّه عز وجل بالتكاليف والأوامر والنواهي ، فقام بواجبه حق القيام ، وأتم ما أمره اللَّه تعالى له ، ووفى بعهده معه ، تحقيقًا لمعنى الإسلام الذي آمن به ؛ قال تعالى :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وقال – جل وعلا – : ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٧] .

والمسلم والمسلمة أتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام في ذلك ، هو سمانا بهذا الاسم ، ونسبنا لهذه الصفة ، صفة الاستسلام

والخضوع لله وحده لا شريك له ، قال تعالى :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٨] .

وهذا ما ميز اللّٰه تعالى به المرأة الصالحة ممن ذكرت لك طرفًا من حياتهن في هذا الكتاب ، إنها فهمت معنى كونها مسلمة ، فأسلمت أمرها للّٰه تعالى ، واستسلمت له في جميع حركاتها وسكناتها ، ووفت بعهدها معه ، فأصبحت لا ترفع يدًا ولا تضعها ، ولا تمشي خطوة ولا تقفها ، ولا تنطق بكلمة ولا تمسك عنها ، إلا بعد أن تعلم هل ذلك يتفق مع إسلامها وعبوديتها للّٰه تعالى ، أم لا ؟ فإن كانت كذلك فعلت ، وإن كانت الأخرى تركت حتى لو وقف هواها وعقلها والمجتمع والعرف ضد ذلك .

عندها نالت هذه المرأة سعادة الدنيا والآخرة ، وصارت مثالًا يحتذى في العبادة ، والخُلق ، والعلم ، والإنفاق ، والتربية ، والجهاد .. وخلّد اللّٰه ﷻ ذكراها في الصالحين والصالحات رحمة وسلامًا ؛ وصدق اللّٰه ﷻ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [النور : ٥٢] .

ثانيا : أن تحددي هدفك في الحياة .

بعض الناس يعيش الحياة بلا هدف ، والبعض يعيشها لأهداف قصيرة . ومتع زائلة ، أما المسلم الحق الذي عرف معنى كونه مسلمًا لله ﷻ لا يرضى بهذا ولا بذاك ، فهو يعيش الحياة لهدف سام ، ومطلب جليل يحقق له سعادة الدنيا والآخرة . وهذا الهدف . وهذا المطلب . هو رضا الله – تبارك وتعالى – عنه .

فهو يصحو وينام ، ويأكل ويشرب . ويسعى ويعمل ، ويزرع ويصنع . ويتعلم ويعلم ، لأجل الوصول إلى ذلك الهدف ؛ قال [redacted] : .﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣] .

وإذا تملك هذا الهدف حس المسلم ، جعله مشعل نور ، وبؤرة خير ومنبع إصلاح لكل ما حوله ، فهو متفوق في دنياه . عامل للجنة في أخراه ، يعلم علم اليقين أن رضا الله عنه لا يتحقق إذا تأخر عن المقدمة أو تخلى عن الركب ، فهو أول في عبادته . وأخلاقه ، وعلمه . وإنفاقه وجده واجتهاده . كما قال الله على لسان نبيه ﷺ : ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وهذا هو عين ما حدث من الصالحات . وما بلغ بهن هذه المنزلة ، حيث جعلن رضا الله تعالى هو هدفهن ،

ووضعن الجنة نصب أعينهن ، ثم تسابقن في الوصول إليها ، كل منهن على قدر استطاعتها ، وتوفيق الله ﷻ لها .

فأقبلت كل واحدة منهن على جانب من جوانب طاعة الله تعالى – دون أن تنسى الجوانب الأخرى – حتى صارت مثالًا يحتذى به ، فكان منهن العابدة ، والعالمة ، والمنفقة ، والمجاهدة .. ومنهن من جمعت أكثر من جانب من هذه الجوانب .

لذا لن تستطيعي – أختاه – أن تصلي إلى ما وصلن إليه ، ولن تلحقي بركبهن دون أن يأتي عندك الدافع الذي دفعهن لذلك ، وهو الوصول إلى رضا الله ﷻ ، وتحقيق كل ما يحبه ويرضاه .

وساعة أن تجردي غايتك وأهدافك في الحياة نحو هذه الغاية الكبرى ، وتجعليها في المرتبة العليا عندك ، سيوفقك الله تعالى إلى الأعمال الصالحة ، والطاعات المخلصة التي يرضى بها عنك ، ويوصلك بها إليه .

اللهم ارزقنا أعمالًا صالحةً ، واجعلها لوجهك مخلصةً ، ولا تجعل لمخلوق فيها شيئًا ، واهدنا إلى ما يرضيك ، وباعد بيننا وبين ما لا يرضيك كما باعدتَ بين المشرقِ والمغربِ ، يا رب العالمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفهرس

مقدمـــة ٧
التمهيـــد ١٥
أولًا : مكانة المرأة في الإسلام ١٧
ثـانيـا : لماذا الحديث مع المرأة المسلمة الآن ؟ ٢٨
ثـالثـا : دفع شبهة أن الإسلام لم يطبق عمليًا إلَّا في عصر الصحابة فقط ٣٤
الفصـل الأول : هكذا كانت عقيدتها وعبادتها ٤٣
أولًا : حسن توكلها على اللَّه تعالى ، وثقتها به ٤٩
ثـانيـا : رضا المرأة الصالحة بما قسم اللَّه تعالى لها . ٥٢
ثـالثـا : خوفها وخشيتها من اللَّه ﷻ ٥٤
رابـعـا : مراقبتها للَّه ﷻ ٥٨
خامسًا : علو همتها في طاعة اللَّه ﷻ ٦١
سادسًا : اجتهادها في قيام الليل ٦٣
سابعًا : إخلاصها في عبادة ربها وحبها لطاعته ٦٦
ثامنًا : محبة المسلمة الصالحة لربها ٦٩
الفصـل الثاني : هكذا كانت أخلاقها وفضائلها ٧٩
أولًا : خلق الصبـــر ٨٤
ثـانيـا : خلق الوفـــاء ٩٠

ثالثا : خلق الورع ١٠٠
رابعا : خلق القناعة ١٠٤
خامسًا : خلق الكرم والجود ١٠٧
سادسًا : خلق التواضع ١١٥
الفصل الثالث : هكذا كان علمها وحكمتها ١١٩
أولًا : دور المرأة الصالحة في مجال
العلوم الشرعية ١٢٥
ثانيا : دور المرأة الصالحة في مجال
العلوم الأخرى ١٣٩
ثالثا : المرأة الصالحة تحث أبناءها
على طلب العلم ١٤٤
رابعا : ما أُثر عن المرأة الصالحة من الحكم ١٤٧
الفصل الرابع : هكذا كانت مع زوجها وأولادها ١٥١
أولًا : حسن عشرتها لزوجها ١٥٧
ثانيا : حسن تربيتها لأولادها ١٧٩
الفصل الخامس : هكذا كان إنفاقها وعملها الصالح ١٨٣
**الفصل السادس : هكذا كان جهادها
وشجاعتها** ١٩٧
أولًا : جهاد المرأة الصالحة بلسانها ٢٠٢

ثـانيـا : جهاد المرأة الصالحة بيدها ٢١٠
الخاتمة : كيف تكونين كذلك في هذا العصر ؟ ٢٢٣
الفهـــرس ٢٣٣

* * *

رقم الإيداع
٢٠٠٦/٢٢٠٥٠
I.S.B.N الترقيم الدولي
977-342-415-4

السيرة الذاتية للمؤلف

الاسم : د. محمد رمضان أبو بكر محمود

العمل : مدرس بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة - جامعة الأزهر ، حصل على العالمية (الدكتوراه) في الثقافة الإسلامية في الدعوة الإسلامية بمرتبة الشرف الأولى مع التوصية بطبع الرسالة وتداولها بين الجامعات عام (٢٠٠٣م) ، وكذا التخصص (الماجستير) في الثقافة الإسلامية بتقدير ممتاز عام (١٩٩٩م) ، وليسانس الدعوة الإسلامية بتقدير ممتاز مع الترتيب الأول على الدفعة عام (١٩٩٤م) .

المؤلفات العلمية :

١ - دراسة ميدانية لواقع الدعوة والدعاة في مساجد وزارة الأوقاف المصرية [رسالة ماجستير] .

٢ - الطفولة في المواثيق الدولية والمحلية ، دراسة تقويمية في ضوء الإسلام [رسالة الدكتوراه] .

٣ - الأجور المادية على الواجبات الدعوية [بحث منشور بحولية كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة عام (٢٠٠٥م)] .

٤ - دعوة الزوج لزوجته ، كيف تأخذ بيد زوجتك

إلى الله ؟

- حقائق الإسلام في الأسرة وأباطيل الغرب فيها .

النشاط الدعوي :

يشارك بإلقاء الخطب والمحاضرات والندوات من خلال قوافل الدعوة بوزارة الأوقاف ، ومساجد الجمعية الشرعية ، وعضو هيئة علماء الجمعية الشرعية ، ومدرس بمعاهد إعداد الدعاة بجمهورية مصر العربية .

* * *

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

عزيزي القارئ الكريم . . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

نشكر لك اقتناءك كتابنا : « هكذا طريق الصالحات » ورغبة منا في تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ ، وباعتبار أن رأيك مهمٌّ بالنسبة لنا ، فيسعدنا أن ترسل إلينا دائمًا بملاحظاتك ؛ لكي ندفع بمسيرتنا سويًّا إلى الأمام .

*** فهيًا مارس دورك في توجيه دفة النشر باستيفائك للبيانات التالية :-**

الاسم كاملًا : .... **الوظيفة :** ....

المؤهل الدراسي : .... **السن :** .... **الدولة :** ....

المدينة : .... حي : .... شارع : .... ص.ب:..........

هاتف : ☐☐☐☐☐☐ / ☐☐☐☐☐☐☐☐☐☐ : e-mail

- من أين عرفت هذا الكتاب ؟

☐ أثناء زيارة المكتبة ☐ ترشيح من صديق ☐ مقرر ☐ إعلان ☐ معرض

....

- من أين اشتريت الكتاب ؟

اسم المكتبة أو المعرض : .... المدينة .... العنوان ....

....

- ما رأيك في أسلوب الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ ممتاز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

- ما رأيك في إخراج الكتاب ؟

☐ عادي ☐ جيد ☐ متميز (لطفًا وضح لِمَ) ....

....

(من أجل تواصلٍ بنَّاء بين الناشر والقارئ)

(من أجل تواصل بنّاء بين الناشر والقارئ)

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ ☐ رخيص ☐ معقول ☐ مرتفع

(لطفًا اذكر سعر الشراء) .... العملة ....

- هل صادفت أخطاء طبعية أثناء قراءتك للكتاب ؟

☐ لا يوجد ☐ نادرًا ☐ يوجد أخطاء طبعية

لطفًا حدد موضع الخطأ ....

....

....

عزيزي انطلاقًا من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سبيلنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملاحظاتك النافعة . . . فلا تتوانَ ودوِّن ما يجول في خاطرك : -

....

....

....

....

....

....

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعلومها والتراث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية

لنراسلك ونزودك ببيان الجديد من إصداراتنا

الكتاب في سطور

هذا الكتاب رسالة إلى كل امرأة مسلمة تؤمن بربها وتعرف دينها وتبحث عن الطريق الصحيح الذي يوصلها إلى أن تكون ممن قال الله عز وجل فيهن:

﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾

هذا الكتاب نداء لكل امرأة مسلمة ؛ إنك لست وحدك على طريق الإيمان ؛ إنما لك سلف صالح : سبقت لهن من الله الحسنى ، وسلكن هذا الطريق قبلك ، وارتدنه لك ، وكن نماذج خير ومشاعل نور تضيء أمامك حتى تمشي وراءهن وتقتدي بهن ، فتصلي إلى ما وصلن إليه من رفعة الدنيا وسعادة الآخرة .

هذا الكتاب يقدم صورة المرأة المسلمة من خلال الإسلام الشامل لكل جوانب الحياة ؛ صورة المرأة المسلمة في عقيدتها وعبادتها ، في أخلاقها وفضائلها ، في علمها وحكمتها ، في معاشرتها لزوجها وتربيتها لأولادها ، في مشاركتها الاجتماعية من خلال إنفاقها وعملها الصالح ، في جهادها بلسانها وسلاحها . إنها الصورة المثلى الشاملة للمرأة المسلمة بمعنى الكلمة .

وأخيرا ، هذا الكتاب يجيب على سؤال في غاية الأهمية وهو: كيف تكون المسلمة المعاصرة الآن مثل هؤلاء الصالحات ؟ كيف تقتدي بهن ؟ كيف تصل إلى ما وصلن إليه ؟ وهل العصر الذي تعيشه الآن يحول بينها وبين هذه الأمنية ؟

Dar-Alsalam Designs © 2007

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ - ٥٩٣٢٨٢٠ - ٤٠٥٤٦٤٢
فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٠٢٠٢)
الإسكندرية - هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٢٠٣)
email:info@dar-alsalam.com
www.dar-alsalam.com